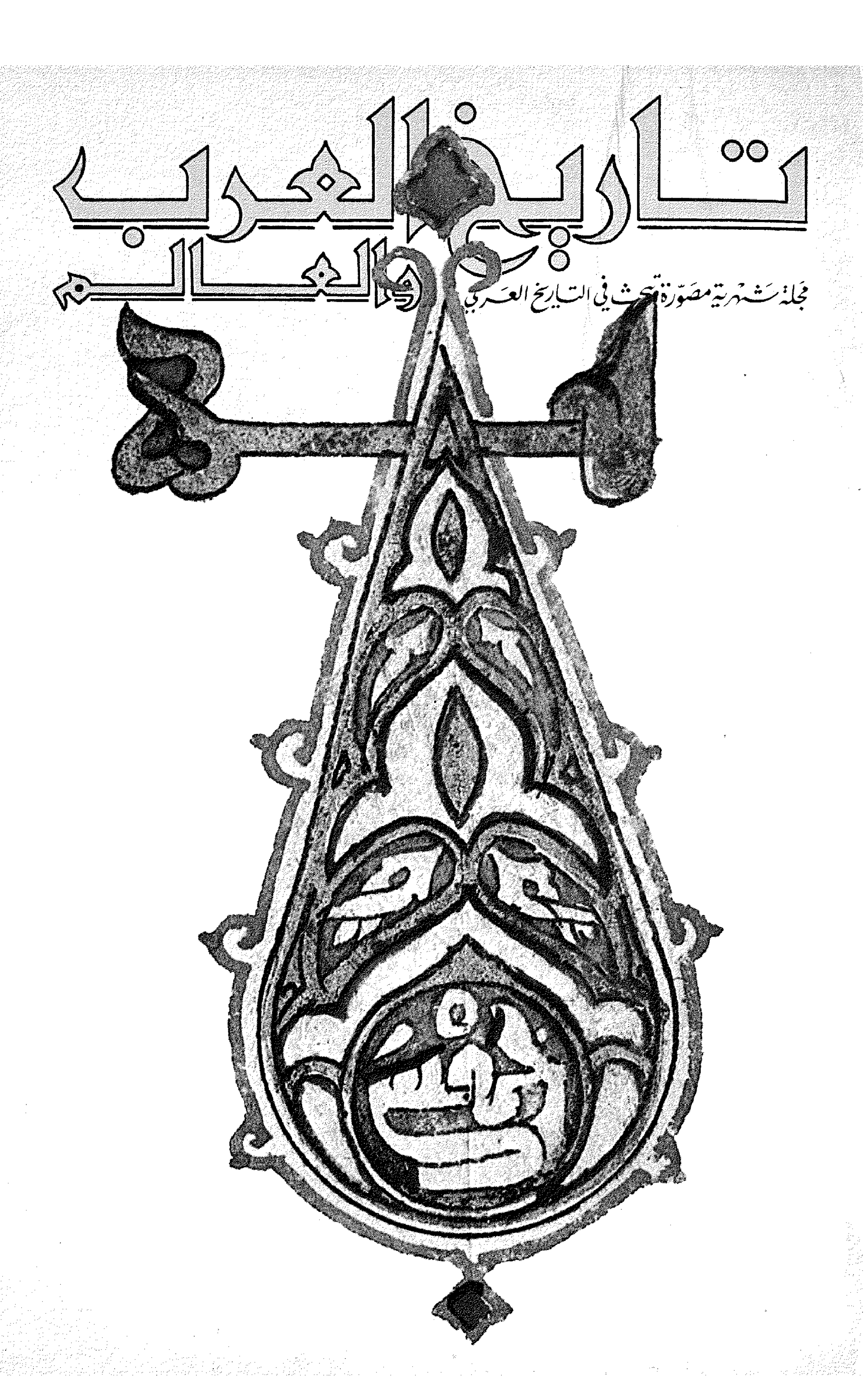
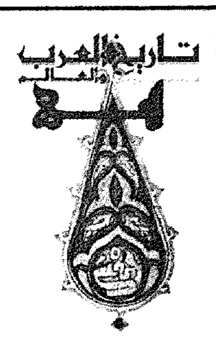

تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

□ مسجد السلطان سليمان ــ تركيا. من كتاب: La Turquie, Larousse



□ كتابة مغربية من القرآن الكريم.
من كتاب: The Splendour of Islamic Calligraphy: Abdel-Kebir Khatibi.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٨٦/٨٥ ● تشرين الثاني ـ كانون الاول ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها: فاروق البربير

المستشار: د. انيس صايغ المدير المسؤول: محمد مشموشي

قسم التوثيق والابحاث: شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات: علي عبدالساتر

المخرج الفني: سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان	١٢ ل.ل.	سوريا	١٢ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

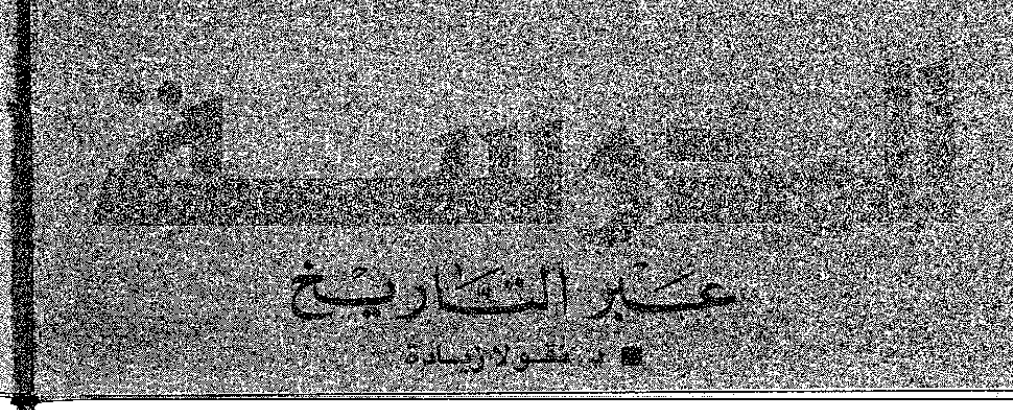
Vol. 8, No. 85/86 ● NOV-DEC 1985

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب..مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■





عبر التاريخ

■ د. نقولا زيادة

في هذا المقال يعرض الدكتور نقولا زيادة للمحطات الرئيسية التي مرت بها المدرسة من مدرسة دير في الشرق والغرب إلى المدرسة الجامعية الأوروبية، ومن المدرسة العثمانية في العصور الوسطى إلى المدرسة الحديثة التي كانت عوناً على النهضة في القرن التاسع عشر.

وبذلك يكون قد استعرض «المدرسة عبر التاريخ»، مبيناً الخطوات الرئيسية التي تمت.

المدرسة والدير في الشرق والغرب

كان لسقوطِ الامبراطوريةِ الرومانيةِ في الغربِ في القرنِ الخامسِ للميلاد واستقرارِ الشعوبِ الجرمانية في ربوعِ أوروبة الغربية أثرٌ في وقفِ التطورِ الثقافي في تلك الربوع. ومع أن عصرَ شارلمان كانت فيه لَمْعةٌ ثقافية، فإن البلادَ عاد إليها الظلامُ الذي استمرَ إلى أخرياتِ القرنِ العاشر، حتى أنَّ الحياةَ الفكريةَ كادت أن تتعطل تماماً. والأماكن الوحيدة التي ظلت فيها جذوةُ العلمِ والثقافةِ مشتعلةً هي الأديرة، إذ أن هذه ظلت تؤدي رسالتَها الثقافية والتعليمية، وفي مقدمةِ الأديرةِ التي قامت بذلك هي الأديرةُ البندكتية.

والأديرةُ البندكتية قديمة في الغرب إذ أنها ترجع إلى القرن السادس. وقد حافظت على الدراساتِ الكلاسيكيةِ الرومانيةِ من العبثِ والضياع. فقد كان في كل دير من الأديرة البندكتية نواةٌ لمكتبةٍ ومكانٌ لنسخِ المخطوطات مزودٌ بالأدوات اللازمةِ للكتابة، وعنايةٌ بالآداب والعلوم والفنون. ومن هنا يمكن القول بأن «الديرية البندكتية قامت بأكبر خدمةٍ للحضارةِ الفكريةِ والعلميةِ والأدبيةِ في المجتمعِ الغربي الوسيط. وقد حفظت في مكتباتها... أكثرَ امهاتِ الكتبِ الكلاسيكية القديمة التي كانت معرضةً للفقدان والضياع أثناء غاراتِ البرابرة على الغرب والدمارِ الذي حل بالمدن الرومانية». (جوزيف يوسف).

وقد ظهرت هذه النزعةُ الثقافيةُ والأدبيةُ في أغلبِ الأديرةِ في وقتٍ كان فيه الناس في الظلامِ يعمهون وفي الجهلِ العميقِ يغطون.

وحرى بالذكر أن هذه الاهتماماتِ والمشاركاتِ الثقافية والأدبية كانت مقصورة على نسبة ضئيلة من سكانِ أوروبة الاقطاعية. فالفرسانُ ومن إليهم كانوا يعنون بآلة القتال، والفلاحون كانوا مشغولين بالانتاج الزراعي، الأمرُ الذي لم يترك لهم وقتاً للأدب. ولذلك فإن التعلمَ والتعليمَ انحصرا تقريباً في طبقةِ رجالِ الدين المسيحي. ومع مرورِ الزمنِ أخذت الرهبنةُ البندكتية على عاتقِها إنشاء المدارس في الأديرة التابعة لها لتعليمِ من يُحب أو من يتمكن من ذلك. وهذه المدارس الديرية هي التي أصبحت تدريجياً معاهدَ للعلمِ والتأليفِ فضلاً عن النسخ والمحافظة على التراث الكلاسيكي.

وفي القرنِ الحادي عشر أخذت أوروبةُ الغربية، أو بعضُ أصقاعِها على الأقل، تنتعشُ اقتصادياً وسياسياً وتتململ اجتماعياً، وتبع ذلك اتساعُ العنايةِ بالتعلم والتعليم. فما كاد القرن الثاني عشر يطل على أوروبة حتى كانت قد أخذت الحياةَ فيها ثورةٌ عارمةٌ ظهرت في الحياة



دكان وراق في بولونيا (ايطاليا) في القرن الخامس عشر



□ورّاق يعرض قطعة من الجلد المصقول على احد الرهبان.

الديرية والفنون والثقافة والعلم. وزاد في ديناميكيةِ هذه الثورةِ أنَ أوروبةَ أتيح لها تدريجاً أن تستوعبَ أفضلَ ما كان عند المسلمين والبيزنطيين من فكر وحضارة.

ورافق ذلك ازديادُ عدد الراغبين في التعلم، خاصةً في المدن، فضاقت المدارسُ الدينيةُ الديريةُ القليلةُ عن استيعاب الأعداد المتزايدة. فضلاً عن أنه بتأثيرِ الحضارةِ العربيةِ الاسلاميةِ والبيزنطيةِ أصبح ثَمةَ موضوعاتٌ جديدةٌ يحب الناسُ أن يتعلموها على أربابها. فوسعت الأديرةُ البندكتية، وقد أصابتها ريحُ الاصلاح في القرن الثاني عشر، اهتمامها بالعلم والأدب، كما أن الحركةَ الكلونية أدت إلى اهتمام أديرتِها بالعلومِ والفنون أيضاً. وقد أُلحِقَتْ بمعظمِ هذه الأديرةِ الكلونيةِ المدارسُ لتعليمِ القراءة والكتابة للأطفال، الذين قد ينصرفون إلى دخولِ السلكِ الكهنوتي أو خدمةِ الدولةِ أو الطبِ أو المحاماةِ.

وحذت الرهبنات الأخرى حذو الرهبنات القديمة فأنشأت المدارس واهتمت بالعلوم حتى كان بين رجالها نوابغ في القانون والفلسفة والآداب.

وقد ظهرت إلى جانب مدرسة الدير مدرسة الكاتدرائية، هي التي كانت تقوم إلى جانب الكنيسة الأصلية في المدن الكبرى. وهذه المدارس كانت، بالنسبة إلى ذلك الوقت، أكثر تحرراً، وأجذب للطلاب والأساتذة، ومن أشهر هذه المدارس الكاتدرائية: ران ولاون وتور وباريس وأورليان في فرنسة وبولونيا في ايطالية.

وكانت المدارس تعظم شهرتها والاقبال عليها أو يقل ذلك بسبب الأساتذة المقيمين فيها. فباريس مدينة لابلارد وشارتر لجون اف سليسبوري. وفي عهده وصلت الدراسات الكلاسيكية والانسانية في هذه المدرسة إلى الذروة.

وتختلف باريسُ عن المدارسِ الأخرى في أنه كان فيها ثلاثُ مدارس. ولما كانت باريس قد أخذت بنصيبٍ وافرٍ من التقدمِ الاقتصادي والازدهارِ في القرن الثاني عشر فقد أصبحت مَحَجَّةَ الأساتذة والطلاب، وهذا ضمن لها استمراراً لم تعرفه المدارس الأخرى. وليس من قبيل المصادفة أن تُتَوِجَ باريسُ حياتَها التعليمية بقيام الجامعة فيها.

«ارتبطت الدراساتُ الفلسفية واللاهوتية والدينية بقيامِ جامعةِ باريس نتيجةً لظروفٍ خاصةٍ أحاطت بالحركة الفكرية في فرنسا. أما الدراساتُ القانونية فقد كان مسرحُها — بطبيعة الحال — ايطاليا مهدَ الحضارة الرومانية القديمة والتعليمِ الروماني القديم اللذين لم يندثرا طوال العصور المظلمة. وإذا كان التعليم في فرنسا قد أصبح حكراً على المدارس التابعة للمؤسسات الدينية، فإنه لم يكن كذلك في ايطاليا. فقد وُجِدَ في الشمالِ الايطالي كثيرٌ من الأساتذة العلمانيين الذين لا يمتون إلى الدينِ بصلةٍ والذين لا يخضعون للكنيسة وسلطانها ورقابتها. كما درج النبلاءُ هناك على تزويدِ أبنائِهم بقسطٍ من التعليمِ خروجاً عن القاعدة المتبعة في بقية أجزاء الغرب. ولهذه الأسباب كان جمهور المتعلمين في

ايطاليا من العلمانيين، بعكس الحال في البلاد الواقعة شمال جبال الألب حيث كان العلم مقصوراً على رجال الدين، وبخاصة في كل من فرنسا وألمانيا وانجلترا».

«وكان طبيعياً كذلك أن يصحب الاختلاف والتباين الفكري بين شمال أوروبا وجنوبها، اختلاف وتباين في مواد الدراسة بينهما. فبينما وجهت البلاد الواقعة شمال الألب اهتمامها إلى الجدل والمنطق والمشاكل المتعلقة بعلم اللاهوت، اهتمت ايطاليا بالنحو والبلاغة والقانون. وكان لذلك فوائده فيما يتعلق بصياغة الوثائق والمستندات الرسمية وإعداد الفرد للعمل بالمحاماة أو كتابة الدعاوى والعرائض. وقد استخدموا المنطق لخدمة الدراسات القانونية. كل هذا جعل الايطاليين يقبلون على دراسة القانون والرجوع إلى تراثهم القديم. وترتبت على ذلك حركة بعث وإحياء للدراسات القانونية ارتبطت أول ما ارتبطت باسم المشرع ارنريوس ومدرسة بولونيا. ولقد ظلت المدرسة الرومانية القديمة قائمة في ايطاليا. وبخاصة في السهول الشمالية. ولهذا السبب ظل القانون الروماني هو الآخر حياً لم يندثر كلية طوال العصور المظلمة إلى أن قامت نهضة القرن الثاني عشر لتعمل على إحياء هذه الدراسات وتلك المدرسة، في نفس الوقت الذي قامت فيه المدن في الغرب بنشاطها التجاري والصناعي على أنقاض الاقطاع وحضارته، تدافع عن استقلالها ضد سيادة الامبراطورية الرومانية المقدسة».



□ ناسخ يهيىء الخطوط للنص.

وهذا الدور الذي قامت به الأديرةُ والكاتدرائياتُ في الغرب قامت به الأديرةُ في الشرق أيضاً. فأديرةُ بيزنطة قامت بحفظِ التراثِ وبالتعليم. وكذلك نجد أن عدداً كبيراً من الأديرة التي عرفت في لبنان ومنطقةِ الموصل وغيرهما كانت لها مكتباتُ حافظت فيها على الكثير من التراث الفكري الروحي، الذي أخذ الباحثون ينفضون الغبار عنه الآن..

نشأة المدرسة الجامعية

كانت معاهد التعليم في الدورِ الأولِ من العصورِ الوسطى المدارسَ الرهبنية، ثم افتُتِحَت المدارسُ الكاتدرائية أو الأسقفية. وأول أمرٍ امبراطوري قصد منه الاكثارُ من المدارسِ الأوليةِ صدرَ سنة ٧٨٩. وكان القصدُ الأولُ من التعليمِ إعدادَ المرشحين للكهنوت. لكنّ المدارسَ كانت مفتوحةً للمدنيين أيضاً. وهذه الدرجةُ الأولى من التعليم أي درجةُ التعليم الأولى، كانت تلقن فيها للطلاب القراءةُ والكتابةُ ومبادىءُ اللغة (اللاتينية) وشرحٌ موجزٌ للكتب المقدسة ومعلوماتُ أولية عن الشعائر الدينية.

ويلي ذلك تعلمُ «الفنونِ الحرةِ السبعة».



□ فنان يرسم وجهاً.

فالمجموعةُ الثلاثيةُ، وهي الغرامـاطيق، والجدل ويشمل الفلسفة، والبيان، كانت مادتُها قـراءةَ كبـارِ الشعراءِ والكتـابِ من الرومـان، وآبـاءِ الكنيسة والشعراءِ المسيحيين، ودراسةَ المنطق. أما المجموعةُ الرباعية فتشمل الهندسة والحساب والفلك والموسيقى.

فإذا انتهى الطالب من هاتين الدرجتين، وأراد الاستزادة من العلم، انتقلَ إلى دراسة الكتبِ المقدسةِ دراسةً واسعةً دقيقة. وفهمُ هذه الكتبِ كـان يقتضي معرفـةً واسعةً بـاللغة والتـاريخ والجدل. ومن هنا كان تأخيرُ هذه الدراسة إلى هذا الدور، أي بعد درس الفنون الحرة. وكانت مؤلفاتُ القديس أغسطين موضعَ عنايةٍ خاصةٍ في الدور الأول من تطور التعليم في أوروبة.

وهذه المراحل التعليمية كانت مفتوحةً لكلِّ من يريد، لكن لم تكن ثمةَ معـاهدُ خاصة بتقديمِ نوعٍ خاصٍ منها دونَ الآخر. فقد يضطر طالبُ العلم إلى التنقلِ كثيراً قبل أن يتاحَ له الظفرُ بكل ما يريد.

وحول سنة ١٠٠٠ كانت المدارسُ الكاتدرائية، مثلُ مدارس ران وشارتر وغيرُهما، قد تزعمت الحركةَ التعليمية في أوروبة. فمدرسة شارتر مثلاً كانت تُدَرِّسُ اللاتينية والبيان والجـدل والفلك والحساب والهندسة والموسيقى. وهي، في هذا، مثلٌ لغيرها من المدارس. لكن مدارسَ جنوب فرنسة وأسبانية كانت أكثر احتفالاً بالحساب والهندسة من غيرها، ولعلها كانت متأثرة في ذلك بالعرب في الأندلس.

وقيمةُ هذه المدارسِ كانت تقومُ على المعلمِ الذي يتزعمها. فإن شهرةَ واحـدٍ من المعلمين كانت ثمينة بأن تجذب إلى المدرسة عدداً من الطلاب قد تضيق به المدينة ذرعاً.

ونشـوءُ الجامعـات في أوروبة في العصـور الوسطى كانت نتيجةً للحركةِ الفكريـةِ الكبيرةِ التي شملت الجزء الغربـي منها في القرن الثاني عشر. فقد رأى بعضُ المعلمين أنَّ في المدارس الكـاتدرائيـةِ حداً لنشـاطِهم، بسببِ سيـطرةِ الكنيسة هناك. فأخذوا بالتدريسِ دون التقيدِ بمدرسة. فاجتمع حولهم الطلاب. وصارت هذه المراكز تشتهر بنوع خاص من الدراسة، مثل القانون في بـولونيا، التي قـامت سنة ١١٥٨، وباريس التي اشتهرت باللاهوت والفلسفة والتي نظمت سنة ١٢٠٠، لما منحها فيليب أغسطس ميثاقها.

وتنظيمُ الجامعة كان سببُه ازديادَ الطلاب إلى حد صار معه وجودُهم في مكان ما بدون تنظيم يؤذيهم ويضرُ بالمدينة وبالتعليم. واتخذ التنظيم سبيلين: الواحدُ خاص بالطلاب والآخرُ شمـل المعلمين. أما المعلمون فكان يزعجهم مزاحمـةُ أدعياء العلم لهم، فجمعوا أنفسهم في نقابات تعليمية كان عملُها أن تمنحَ «إجـازة التعليم» للرجـل الذي يريـد أن ينصِّبَ نفسَه مـدرساً لموضوع ما. وأما الطلابُ فكان يعنيهم أن يُدْفَعَ عَنهم الأذى ويُرْفَعَ عنهم الضيم ويُسَهَّـلَ لَهم العيش دون أن يُسْتَغَلُّوا، وأكثرُهم كانوا فقراء.

وتنظيمُ جامعة باريس يعطينا صورةً واضحةً لتنظيم كثير من الجامعات الأخرى. فقد كان فيها

أربعُ نقاباتٍ للمعلمين: نقابةُ معلمي الآداب، ونقابةُ معلمي القانون، ونقابةُ معلمي الطب، ونقابةُ معلمي اللاهوت، وكانت هذه أرفعها كلها. ولكل من هذه النقاباتِ عميدٌ ينظم سيرَ العملِ فيها، ويشرفُ على شؤونها. ولما كانت دائرةُ تدريسِ الآداب أكثرَ الدوائر طلاباً ومعلمين، كان عميدُ نقابتهم صاحبَ منزلةٍ خاصة، بحيث صار مع الزمن، رئيسَ الجامعة الأعلى.

أما تنظيمُ الطلاب فكان في اتحادات تسمَّى «الأمم» وجامعة باريس كانت فيها أربعُ أممٍ هي فرنسة ونورمندية وبيكاردى وانكلترا. والتنظيمُ استتبعَ أن يُضَمَّ جميعُ الطلاب، الذين جاؤوا بعد تقسيمِ الجامعة إلى هذه الأمم، إلى واحدة منها بحسب الجهة التي جاؤوا منها. فجميعُ طلابِ الجنوبِ كانوا يدخلون في عداد الأمة الفرنسية، أي الاتحاد الفرنسي. ولكل من هذه الاتحادات (الأمم) زعيمٌ كان ينتخب من أبنائها.

وقد شمل التنظيم الجامعي الأمور التالية:

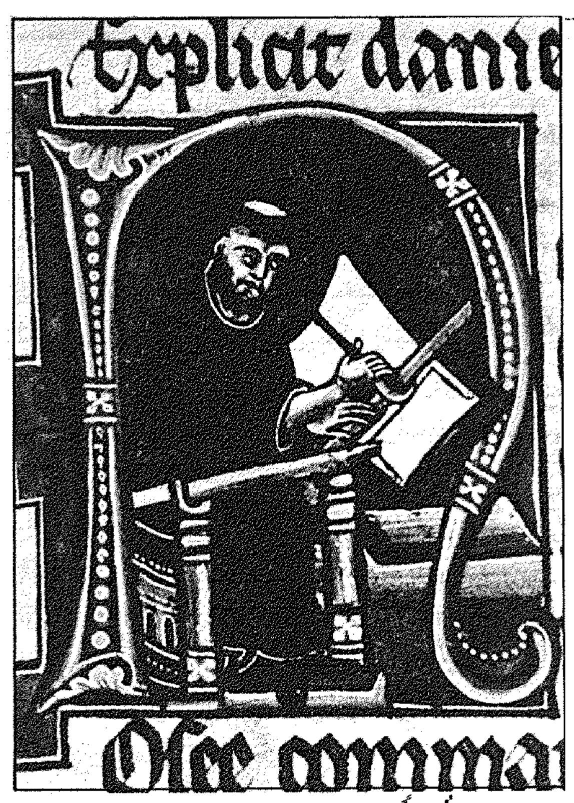
١ ــ يتحتمُ على الطالب أن يستمعَ لأستاذٍ معين ثابتٍ، فلا يَتَنقل حراً من مدرسٍ إلى آخر.

٢ ــ عُيِّنَتْ الكتبُ الواجبُ استعمالُها في الأبحاثِ المختلفة. ولعل القصدَ من ذلك كان استبعادَ الكتبِ التي كانت تعلِّمُ البِدَعَ أو الزندقةَ أو الكفرَ من جهة، ومن الجهة الثانيةِ تعيينَ المستوى المتوجبِ الوصول إليه في البحث.

٣ ــ حُدِّدَتْ السنواتُ الواجب على الطالب أن يقضيها قبل أن يحصل على حق التعليم، أو إجازة العالمية، كما يصح أن نسميها. فطلابُ الآداب كانوا يقضون خمس سنوات أو ستاً، وطلابُ اللاهوت والطبِ كان يشترط فيهم أن يكونوا قد حصلوا على العالمية أولاً، لصعوبة هذين العلمين، وخاصة اللاهوت.

٤ ــ اشترك الملوك والبابوات في تنظيم الجامعات. فمنح فيليب أغسطس جامعة باريس ميثاقَها، واعترف البابا انوسنت الثالث، باتحادِ الجامعة. وبذلك أصبحت هذه المراكزُ أماكنَ مشروعةً للبحث.

٥ ــ اعتبر أن من حقِ الطلاب أن «يُهاجِروا» وينشئوا مراكزَ جديدةً للتعلم. وعلى هذا الأساس هاجر جماعةٌ من باريس وأنشأوا جامعة اكسفورد، ثم هاجرَ جماعةٌ من هؤلاء فأنشأوا جامعة كمبردج.



□ راهب يعدُّ رقاً للنسخ.

وكانت مشاكلُ الحياةِ شديدةً على الطلاب، فاهتم بهم أولو الأمرِ وأخذوا يهبونهم أماكنَ للسكن ووقفوا على الطلاب أملاكاً تعينهم وارداتُها على العيش. ثم أخَذَ أصحابُ النفوذِ بإنشاء الكليات. ولعل أقدمها تلك التي أنشأها روبرت دي سوربون، كاهنُ الملك لويس التاسع، لطلابِ اللاهوت بالحي اللاتيني بباريس. ثم انتشر إنشاءُ الكليات في أوروبة، وقد أفادت منه انكلترا في القرن الثالث عشر، ولا تزالُ الكلياتُ المظهرَ الرئيسي للحياة الجامعية في أكسفورد وكمبردج.

واهتم أهلُ الخيرِ بتأمين معاشاتٍ للمعلمين، حتى لا يعتمدَ هؤلاء على ما يتقاضونه من الطلاب، فحُبِسَتْ الأملاكُ على الكليات، فكُفِيَ المدرسون مؤونةَ العيش وانصرفوا إلى مباحثهم يجوّدونها، وتدريسِهم يحسنونه.

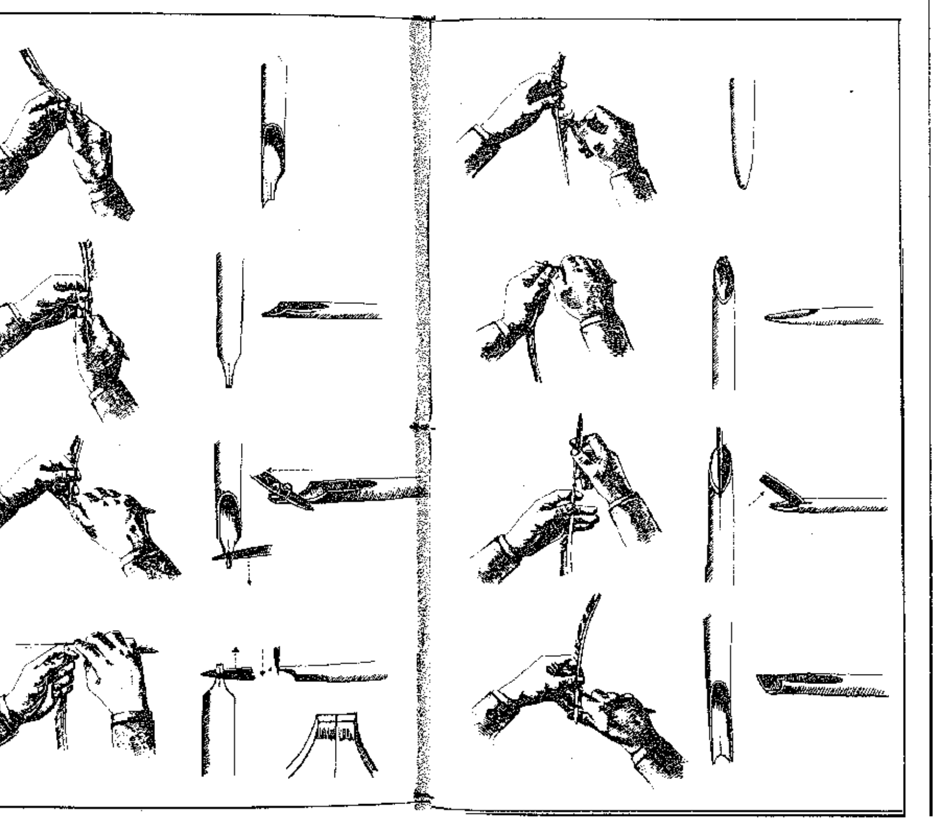
المدرسةُ اللبنانيةُ في العصور الوسطى

عرف لبنانُ معاهدَ التعليمِ منذ ان كانَ ثمةَ للتعليمِ مجالٌ ــ أي منذ أن كان ثمةَ شيءٌ يُعَلَّم، إما مشافهةً أصلًا أو كتابةً فيما بعد. ومع أننا نحبُ لو أنَّ التحدثَ عن هذه المدارسِ الأولى مُتَيَّسـر، فـإننـا مضـطرون، إلى تجـاوزِ هذه الفتراتِ القديمة، والانتقـالِ إلى العصورِ المتوسطة. وحتى معالجتُنا لهذه لنْ تكونَ أكثرَ من مقدِّمةٍ لما نريد أن نوفيـه حقَّه، أي المدرسة اللبنانيةِ في عصرِ النهضة. على أنه لا بدَّ من الاشارةِ إلى مدرسةِ الحقوقِ التي قامت في بيروت في العصر الروماني البيزنطي، والتي كانت مثالًا على الانفتاحِ بالنسبةِ إلى الفقهِ الروماني من الناحيةِ الواحدة، وإلى ما خبرتهُ المنطقةُ من تجارب مختلفةٍ في أمورِ التشريعِ وتطبيقِه من الناحيةِ الأخرى.

ونحن إذا أخذنا لبنان في العصور الوسطى، أي إلى القرن السادس عشر، وجدنا أن أجزاءَه المختلفة كانت لها مدارسُها، وإن كانتْ غـالبأ ما يقعُ التعليمُ لا في بناء خاص ولكن في المسجدِ او الكنيسةِ أو غيرهما من الأماكن الدينية. وعلى كلٍّ، فقد وصلت إلينا أخبارٌ كثيرةٌ عن عنايةِ بني عمار حكامِ طرابلس بالتعليمِ والمدارسِ والمكاتبِ في القرن الحادي عشر. كما أن طرابلس عَرفتْ مدرستين كبيرتين في أيامِ المماليك، هما: السقرقية التي أنشئت سنـة ١٣٥٦ والخـاتـونيـة التي اسست سنة ١٣٧٤. والذي اقرّه الباحثون هو أن التعليم في هاتين المدرستين، ولعله كانَ المنهجُ الذي تتبعُه غيرُهما من المدارسِ في تلك الأيام، كان على طبقاتٍ ثلاث: الأولى تشمـلُ القراءةَ والخطَ والاملاءَ والقـرآن الكريمَ والفقـهَ وعلمَ الزايرجـات أي استخراج الضميرِ ومعرفة الغيب. والطبقة الثانية فيها المصارعةُ ورمي السهامِ والقيافة. والطبقـةُ الثالثـة أساسُهـا المسابقـةُ وركوبُ الخيل.

ومن المدارسِ الهامةِ في لبنانَ في العصور الوسطى مدارسُ جبلِ عامل. ذلك أن جبلَ عامل كان، منذ استقرارِ الشيعةِ فيه، على اتصـالٍ قوي بمراكزِ الفقهِ الامامي في العراق وإيران. وهناكَ أسماءٌ لامعةٌ في تاريخِ العلمِ في جبل عامل منها جزين ومدرستُها وميس الجبل ومدرسة جبع.

ويبدو أن جزين كانت أقدمَ مركزٍ للتعليم في جبل عامل، إذ أن اسمَها كمركزٍ لذلك يرجع إلى القرن الثاني عشر. وكان الطلابُ يؤمونها لتلقي العلمِ على مشاهيرِ علمائها. ومثلُ ذلك يقال عن جَبَع التي عاصرَت جزين ثم انتقل إليها من العلمِ كثيرُه بعد أن جلا الشيعةُ عن جزين. ولو ان المدرسة التي خلفت جزين تمامـاً هي مدرسةُ ميسِ الجبل. ويترتب علينا ان نذكرَ أنَّ احتلالَ المغولِ للعراق في أواسطِ القرنِ الثالثَ عشر واستيلاءهم على بغداد (١٢٥٨) أدى إلى اضطرابِ شؤونِ الدراسةِ العاليـةِ في النجف. وذلك وضـع عبئاً ثقيلًا على معاهدِ العلمِ في جبلِ عاملٍ في لبنان. وقد نهضت هذه المدارسُ بالعبءِ وكانت على قَدْرِ المسؤولية. ففي أواخرِ القرنِ الرابع عشر نجد أنَّ الشهيدَ الأول محمدَ بنَ مكي، بعد عودتِه من العراق، يجعلُ من جزينَ مركزاً لمدرسةٍ عاليةٍ للفقهِ الامامي.



□ مراحل تحضير القلم الريشة. كل ما تحتاجه هو ريشة من الريش الخمسة الأولى من الجناح الأيسر لطائر ريش كالأوزة، سكين حادة وقليل من الصبر.

وخلفت مدرسةَ جزين مدرسةُ ميسِ الجبل وقد أسست سنة ١٥٢٦. «وكانت هذه المدرسةُ مثابةَ طلابِ العلومِ في عامة انحاءِ جبلِ عاملٍ ورحلةِ فضـلاءِ الشيعـةِ من العـراقِ وإيـران والشام، وقد بلغ عددُ طلابها ٤٠٠ طالب، وقرأ فيها كثيرٌ من العلماءِ منهم العلامةُ الكبيرُ الملقب بـالشهيـد الثـاني (توفي ٩٦٦هـ ــ ١٥٥٨م). ويبدو أن هذه المدرسةَ بقيت بعدَ وفاةِ مؤسسِها ردحاً من الزمنِ يُشيرُ إلى ذلك تراجمُ خريجيها. وينتسبُ إليها كثيرٌ من العلماء الذين تخرجوا بعد وفاة مؤسسها. وخرجَ من ميس الجبلِ نفسِها علماءُ كثيرون، ذَكَرَهُم وذَكَرَ فضلَهم على المعرفةِ وأشارَ إلى مؤلفاتِهم الحرُّ العاملي. وقد كان منهم في القرنِ السابـعِ الهجري علمـاءُ كبار منهم أحمد بنُ تاجِ الدين العامليّ الميسي الذي استجازَ منـه العـلامــةُ محمـودُ بنُ محمـدِ الكيـلاني سنة ٩٥٦هـ. ومن العلماءِ القدماءِ الذين خرجوا من ميسِ الشيخُ لطفُ الله المَيْسِي. كان علامةً كبيراً مات ودُفِنَ في أصفهان حيثُ بُنِيَ له مُقام ومسجد معروف ما زال في إيران حتى اليوم مشهوراً ببنائِه البديع. وقد كان هذا معاصراً للشـاه طهماسب الصفـوي. ويُسَمَّى مـؤسسُ المدرسةِ المنتظمةِ في مَيس بالمحققِ المَيْسي نِسبةً لتحقيقاتِه العلميةِ والأصولية».

وإذا نحن اتجهنا نحو المناطق التي استقرت فيها الطائفةُ المارونية وجدنا أنَّ التعليمَ كـانَ موجوداً في كلِّ ديرٍ وكنيسةٍ وانطوش، وأنَّ كلَّ راهبٍ أو قسٍ مسؤولٌ عن رعيةٍ كان يعلم في قريتِه وضيعتِه. ومدرسةُ الكنيسة ومدرسةُ تحتِ السنديانة لم تكن أسماء فارغةً بالنسبة إلى تلك المناطق.

ليس بين أيدينا معلوماتٌ وافيةٌ عن مناهجِ التعليمِ وأساليبِه في المدارسِ المارونيةِ المختلفةِ، ولكنَّ كلًّا منها كانت تعلم مبادىءَ الدينِ المسيحي والعربية. وبما أنَّ اللغةَ السُّـريانيـةَ هي لغةُ الطقسِ الكنسي فقد كانت العنايةُ بها كبيرة.

والكتابُ المدرسيُ كان العهدَ الجديدَ والمزاميرَ من العهد القديم من الكتاب المقدس.

ويمكن القولُ إجمالاً بأنَّ الدراسةَ كانت تُعَيِّنُ مراحلُها بالكتب التي تُدرَّس. فالكتابُ هو نقطةُ الانطلاقِ الأساسية. والأستاذُ كان مِحورَ التعليم. فقد كان الطلابُ يتحلقون حولَه ويتلقـون منه معرفتَه تفسيراً لآية كريمة أو إسنـاداً لحديث شريف أو شرحاً لمتن. وليس أدلُّ على الاهتمام بـالمعلمِ والطالبِ مـن أن الشهـيـدَ الثـاني زينَ الدينِ بنَ علي بن أحمد الجبعي والمتوفى سنة ٩٦٦هـ (١٥٥٨م) قد وَضَعَ كتـابـاً في التعليم وآدابِه بالنسبةِ إلى المعلمِ والتلميذِ سماه «منيةُ المريد في آدابِ المفيدِ والمستفيد».

المدرسة والنهضة العربية

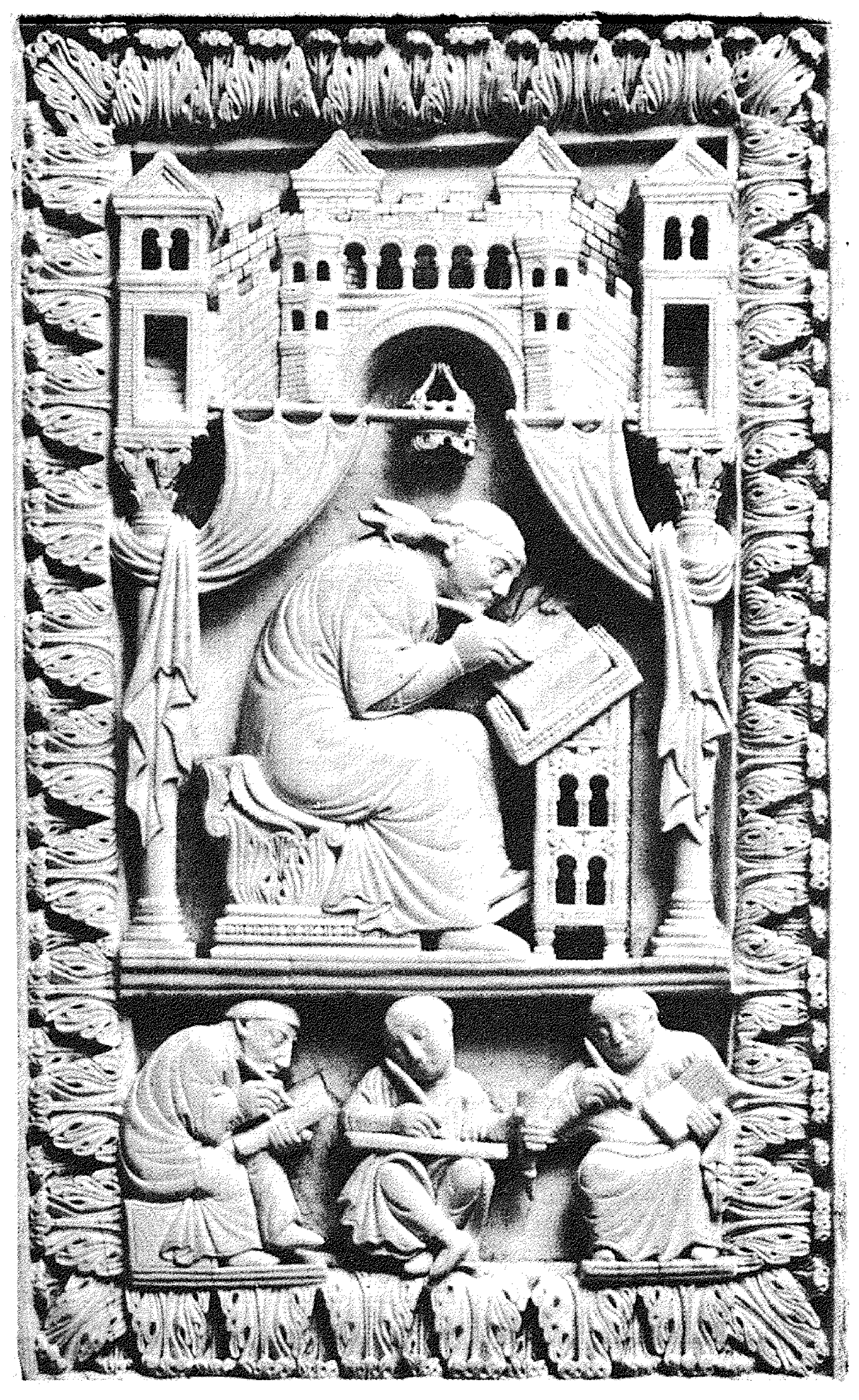
في القرنِ التاسعَ عشرَ ظهرت في تركية وديارِ الشام ومصرَ بوادرُ يقظةٍ هامةٍ ترتب عليها قيامُ حاجاتٍ جديدةٍ ومتطلباتٍ لم تُعْرَف قبلاً. ولعل في مقدمةِ هذه المتطلباتِ العنايةُ بالجيوش والأسطول للدفاع عن كيان الامبراطورية ومصر. وكان من نتـائجِ ذلك أن اهتمت استـانبول والقـاهـرة بالمدارسِ العسكريةِ التي تهتمُ بتدريبِ الضباطِ لتنظيمِ القوى المحاربة. بدأ ذلك في استانبول حتى قبل نهاية القرن الثامن عشر واستمر بشكلٍ خـاص في عهـد السلطان محمـود الثـاني. ولما استأثر محمد علي بحكمِ مصر أسسَ مدرسةً للهندسةِ ومدرسةً للطب إلى جانب المدارس التي كانت للتدريس العسكري. وقد سار في ذلك كله على غرارِ استانبول. وقد سرت العدوى فيما بعد إلى تـونس فأنشئت فيهـا مدرسـة في بـاردو سنة ١٨٤٠ وقد سمي مكتب العلوم الحـربية أو مكتب المهندسين. وقد كان الغرضُ من إنشاء هذه المؤسسة إعدادَ الضباط المدربين لخدمـة الجيش وتنظيمه. ولكن تونس لم تنتقل في ذلك الوقت إلى دور إنشاء مدرسة طبية.

هـذا نموذج من الحـاجاتِ الجـديدةِ التي اصبحت لازمة للمنطقة وكان لا بد من السعي لسدِّها. على أن ذلك لم يكن الشيءَ الوحيد. فقد احتاجت الدولةُ، في مصر والشام مثلاً، إلى رجالِ إدارةٍ لهم خبرةٌ خاصةٌ في تدبير الأمور، ولزم للمَهَامِّ المختلفةِ جماعاتُ يتقنون اللغات الأجنبية، اما للاتصال بـالدول الأجنبية أو للتعـرف إلى ما يكتب بتلك اللغات في مجال الخبرات الفنية — من ري وهندسة وطب وفنون حرب وأساليب قتال. كل هذا الأمر اقتضى أن تجدد معاهد العلم القديمة برامجَها بحيث تتـلاءم مع الأوضـاع الطارئة.

ومن هنا نجد أن محـاولاتٍ تقومُ في مصر وتونس لتجديدِ التعليم في الأزهر والزيتونة، كما نجد أن مثل هذه المحاولات تظهر في أمـاكن أخرى. فما الذي انتهى إليه الأمر في مختلف البلاد العربية؟.

يبدو أن الأزهرَ لم يكن باستطاعتهِ أن يتطورَ يومَها بحيث يستوعب التطورات المختلفة، ولعل ذلك يعودُ إلى استمراريةٍ طويلةِ الأمد هي التي كان من الصعب تبديلُ خطِ سيرِها. ولذلك كان لا بد من القيامِ بعملٍ آخرَ يسيرُ في خطٍ موازٍ للأزهر ولكنه يعمل في حقول أخرى. وكان من ذلك إنشاءُ مجلسٍ للمعارف والتربية ومدرسةِ الألسن لتعليم اللغاتِ والاهتمامُ بالترجمة في الوقت ذاته، وفتـحُ مؤسسـات للصيـدلة والزراعـة. ولعـل مما يلفت النظر أنه في أواخر القرن التاسـع عشر فتحت في مصر مدرستان كان القصدُ منهما سدَّ حاجةِ البلادِ في ميدان تعليم العربية والقضاء. وهما: دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي. فقد اصبح الأمر يستدعي خبرات جديدة بين من يولون شؤون تـدريس العربيـة ومن يجلسون للنظر في قضايا الناس.

ومحاولةُ تبديلِ خطِ السير في الزيتونة بتونس



□ نقش عاجي فرنسي (٩٦٠ — ٩٨٠م) لمدرسة الدير في الغرب.

لم تنجح أيضاً. لذلك استبدلت، مع الوقت، بإنشاءِ المدرسةِ الصادقيةِ سنة ١٨٧٦. وكان برنامجُ التعليم فيها يشملُ بالاضافةِ إلى علومِ الدين والعربية، تعليمَ التركية والفرنسية والايطالية (إن اقتضى الحال)، وتدريسَ التاريخ والجغرافية والحساب والجبر والهندسة والمقابلة والحيل أي الميكانيكا والطبيعة والكيمياء والهيئة والقوانين والأنظمة السياسية. وقد قال هسّه وارتغ عن هذه المدرسة أنها من أحسن ما زار في الشرق.

في تركية ومصر وتونس كانت الدولةُ هي التي تعنى بهذه الأمور، ومع أن تونس ومصر كانتا من الناحية القانونية، ولايتين عثمانيتين، فإنهما كانتا، في واقع الأمر، تُدارانَ إدارةً فيها الكثيرُ من الاستقلال الذاتي. أما في ديارِ الشام فقد كان الأمرُ يختلف. فسورية بالذات، التي كانت ولاياتٍ عثمانية نالها ما نال الولاياتِ من تقلب أحوال. أما لبنان، الذي كان له استقلال ذاتي منذ أواسط القرن التاسع عشر، وولاية بيروت التي كانت تضم قسماً كبيراً من ساحل سورية وفلسطين بالاضافة إلى الساحل اللبناني، فقد يَسَّر لهما موقعهُما والأحوالُ القائمةُ فيهما أن تنهجا نهجاً خاصاً في المدرسة الحديثة، التي كانت نتيجة للنهضة من جهة، ووعاء لحاجاتِ هذه النهضة من جهة ثانية.

شهد القرنُ التاسع عشر في لبنان قدومَ جماعاتٍ من المبشرين أخذت على عاتقها إنشاء المدارس. وقد توج عمل كل من الفريقين الرئيسيين بفتح كلية. فالتي فتحها المبشرون الأميركان انتهى أمرها، بعد تطور كبير، إلى الجامعة الأميركية اليوم؛ والتي فتحها الفرنسيون صارت، أيضاً بعد تطور وتبدل، إلى جامعة القديس يوسف. وكلاهما في بيروت.

وقد أقبل الطلابُ على المدارسِ والمعاهدِ يتلقون العلومَ الحديثة من فيزياء وكيمياء ورياضيات وفلك ولغات قديمة وحديثة، هذا بالاضافة إلى دروس الطب في الجامعتين المذكورتين.

وقد كان ثمةُ ردُ فعلٍ لهذه المدارسِ، فقامت في لبنان، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومطلعِ العشرين مدارسُ وطنية، بمعنى أن منشئيها كانوا من أبناء البلاد. ومع أن أكثرَ هذه المدارس كانت طائفية الصبغة، فإنها جميعها كانت تعنى، فضلاً عن التعليم الديني لأبناءِ الطائفة، بالعلوم الحديثة بعد أن استطابها المعلمون، وأخذ هؤلاء الخريجون يسدون حاجات جديدة لا في بلاد الشام فحسب، ولكن في رقاع أخرى من العالم العربيِ الواسع.

ليس بالامكان التحدث عن هذه المدارس في هذا المجال المحصور، ولكن لا بدَّ من الاشارة إلى مدرسة الحكمة المارونية التي علم فيها الشيخ يوسف الأسير وكان من خريجيها جماعة من كبار حملة الأقلام في البلاد والمهجر. وهناك المدرسة البطريركية ومدرسة زهرة الاحسان. وقد أخذ أبناء جبل غامل أنفسهم بتجديد المدارس القديمة مثل مدرسة حَنَوَيْه ومدرسة بنت جبيل ومدرسة النبطية الحديثة والمدرسة الحميدية.

في سنة ١٨٦٣ أنشأ حسن البنا أولَ مدرسة حديثة إسلامية في بيروت وكانت تعلم العربية والحساب وعلوم الدين. وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة افتتح الشيخ أحمد الأزهري مدرسته الخاصة التي سماها العثمانية وقد عمرت زهاء عشرين عاماً. وقد قيل فيها «اتسعت دائرتها وجعلت داخل محيط أقسام التعليم الثلاثة الابتدائي والاستعدادي والعلمي ــ عدا روضة الأطفال. وبهذه كلها صارت كليةً وأخرجت للأمةِ من الشبابِ الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لامته من خدمة المدنية في فروع العلم التي حصل عليها فيها».

إلا أن أهم حدث في تاريخ التعليم بالنسبة للطائفة الاسلامية في القرن التاسع عشر هو تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية سنة ١٨٧٨ في بيروت وصيدا، وقيامها بفتح المدارس الحديثة، ثم امتداد عملها إلى طرابلس وغيرها من الأماكن.

والذي نخلص إليه من هذا الحديث هو أن الحاجات الجديدة التي عرفت في هذه المنطقة في القرن التاسع عشر اقتضت معارف وخبرات جديدة وأساليب متطورة لمجابهتها. فكانت المدرسة الحديثة، على تفاوت في معناها وبرامجها وطرقها، هي الجواب.

المدرسة اللبنانية في القرن التاسع عشر

في سنة ١٨٥٤ أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر مدرسة في رومة باسم المدرسة المارونية في رومة. كان القصد من تأسيس هذه المدرسة تعليم رجال الدين الموارنة ليقوموا بواجباتهم نحو الرعية بأسلوب أفضل من ذي قبل. كان تلاميذ هذه المدرسة يؤخذون من لبنان (وشمال سورية وقبرص) ويقضون هناك حوالي عشر سنوات يتلقون فيها اللغات السامية واليونانية واللاتينية والفلسفة والمنطق واللاهوت، ويدربون على الفرنسية والايطالية. ولما عاد هؤلاء إلى لبنان عملوا على تأسيس مدارس أرقى من المدارس التي كانت من قبل. وقد انتشرت هذه المدارس في المناطق المارونية وأصبح المعلمون فيها، وأكثرهم من خريجي المدرسة المارونية في رومة، يضيفون مواد جديدة للمناهج، ويعلمون طلابهم لغة كلاسيكية في غالب الأحيان. ولما كانت آفاق أولئك المعلمين الجدد أرحب، ونظرتهم أوسع، وتجاربهم أغزر وأعمق، فقد انتقلت مدرسة الكنيسة والدير وتحت السنديانة إلى دور جديد في حياتها.

وكانت قمة ما بلغته جهود الذين نفخوا في التعليم روحاً جديدة بتأثير المدرسة المارونية في رومة إنشاء مدرسة عين ورقة (١٧٨٩). التي عمل على تأسيسها المطران يوسف أسطفان (توفي ١٨٢٠) يقول فؤاد افرام البستاني عن عين ورقة:

«فمن الطبيعي إذاً أن يذكر بعض العائدين منهم (من متخرجي المدرسة المارونية في رومة).. أن يفكروا بإنشاء مدرسة كبرى على غرار مدرسة رومة. ويكون ذلك في عين ورقة من مقاطعة كسروان سنة ١٧٨٩. سنة الثورة الفرنسية وسنة تولي الأمير بشير حكم لبنان».

قامت عين ورقة دينية الأسس ثانوية البرامج. ولكنها لم تلبث أن توجت هذه الدروس بفروع من التعليم الجامعي كالمنطق والفلسفة واللاهوت النظري والأدبي، على غرار جامعات ذلك العصر، مع تدريسها أربع لغات: العربية والسريانية واللاتينية والايطالية. فكانت أول مظهر للتعليم الجامعي العصري في لبنان بل في الشرق العربي بأسره .

في أوائل القرن التاسع عشر جاءت لبنان فئتان من المبشرين لم تلبث أن أخذت على عاتقها إنشاء المدارس في البلاد. والفئتان هما البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبعثات التبشيرية الانجيلية (البروتستانية). وكانت الأولى فرنسية الأصل أما الثانية فكانت في غالبها أميركية، وان كان ثمة مشاركة محدودة للمؤسسات التبشيرية البريطانية. وتعددت المدارس في لبنان وانتهى الأمر بإنشاء مدرستين ثانويتين في عبيه (للأميركان) وغزير (لليسوعيين). ثم توجت كل من هاتين الفئتين جهودها في التعليم بإنشاء الكلية السورية الانجلية (١٨٦٦، وهي الجامعة الأميركية في بيروت اليوم) وكلية القديس يوسف (١٨٧٥ وهي جامعة القديس يوسف اليوم).

وقد أقبل الطلاب على هذه المعاهد يتلقون فيها العلوم الحديثة من فيزياء وكيمياء ورياضيات وفلك (ودروس الطب في الجامعتين) واللغات القديمة والحديثة. ولسنا هنا في معرض التحدث عن هذه المدارس وآثارها في الحياة الفكرية في لبنان ولكننا نود أن نلفت النظر إلى أمرين هامين أولهما أن ميزة الانفتاح التي عرفت عن اللبناني ورغبته في أن يأخذ الحكمة والمعرفة من أي جهة جاءت بدت واضحة في إقباله على التعلم. والأمر

الثاني هو أن الفئات المختلفة التي يتكون منها لبنان أخذت نفسها بإنشاء المدارس اللبنانية رغبة منها في الحفاظ على ذاتيتها وشخصيتها. ومن هنا كان هذا الاقبال على فتح المدارس الخاصة بأبناء البلاد، سواء كان الذين قاموا على تأسيسها أفراداً أو جمعيات أو مؤسسات دينية.

ولعل المدرسة الوطنية التي أنشأها المعلم بطرس البستاني (١٨٦٣)، كانت خير نموذج على الرغبة الملحة لاقامة تعليم لبناني سليم.

إلا أن الذي غلب على المدرسة اللبنانية الحديثة كانت النزعة الطائفية. فكل فئة أرادت أن يكون لها معهد، أو أكثر، خاص بها؛ يربي النشء ويعلمه ويهذبه. ولذلك لا نرى بأساً من التحدث عن هذه المدارس التي قامت في القرن التاسع عشر على النحو الذي أرادها لها مؤسسوها والقوامون عليها. (ولن نتحدث عن المدارس في القرن العشرين فذلك أمر يطول).

في سنة ١٨٦٢ أنشئت المدرسة الداودية في عبيه، وكان ذلك تلبية لرغبة الطائفة الدرزية.

وإذا نحن أخذنا المدارس المارونية وجدنا أن عدداً من المدارس أنشىء في هذه الفترة لتحقيق الأغراض التي ذكرناها منها مدرسة عرامون بكسروان (١٨٦٥) التي كانت تدرس العربية والتركية والفرنسية والانكليزية ومدرسة قرنة شهوان (١٨٧٠) وكان طلابها يتعلمون العربية والسريانية والفرنسية واللاتينية والمدرسة الوطنية في صيدا التي أنشأها الخوري الياس عطية وكيل النائب الأسقفي لطائفة الموارنة في صيدا.

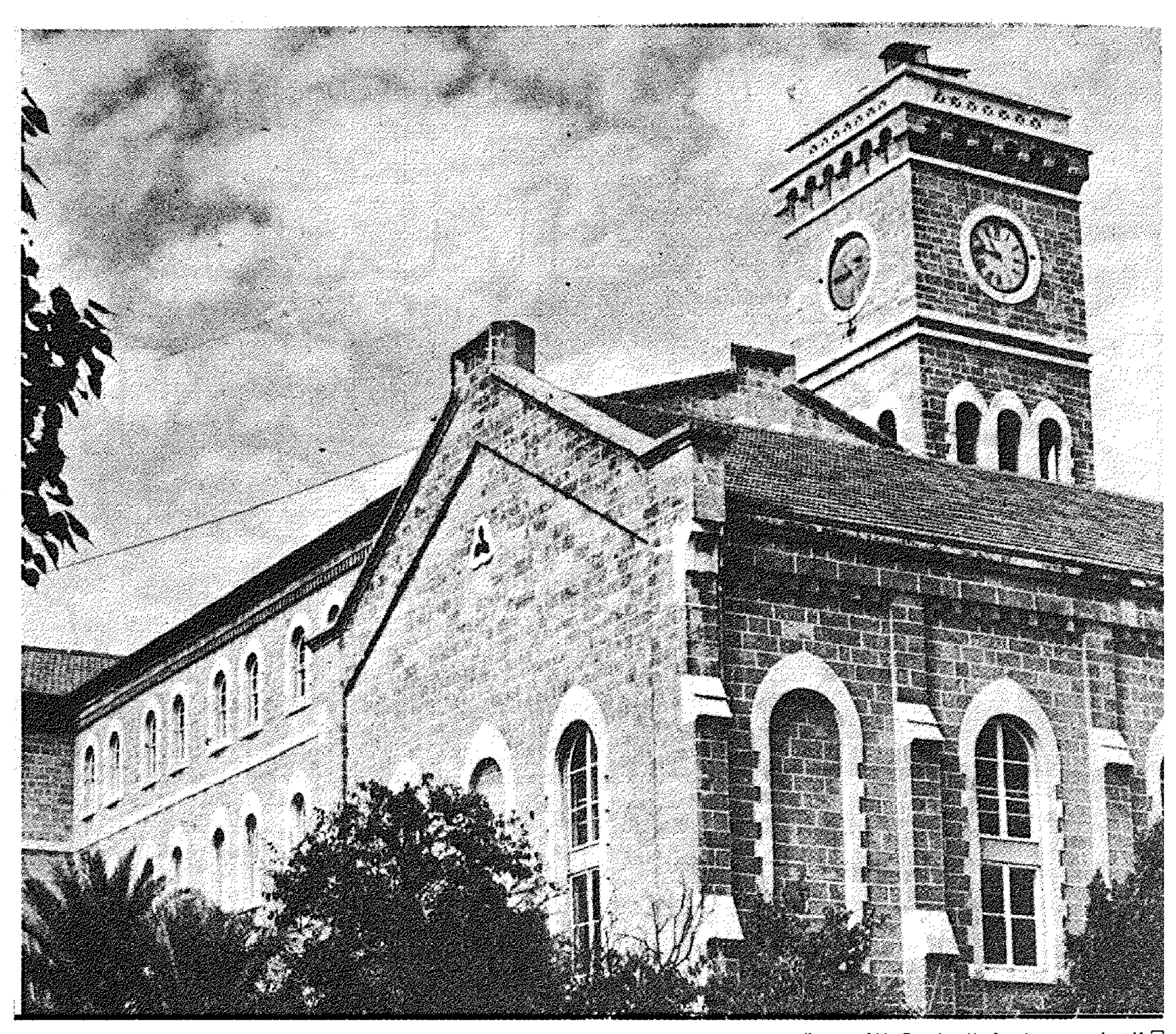
لكن المدرسة التي كان مرجواً منها ان تلم شعث أبناء الطائفة والتي حققت الآمال، كانت مدرسة الحكمة في بيروت.

أنشأ هذه المدرسة المطران يوسف الدبس (توفي ١٩٠٧) الذي كان نابغة عصره في العلوم العقلية والنقلية. وقد لقي الكثير من العراقيل والعقبات لكنه ذلل ذلك كله بحكمته وأناته وصبره ومثابرته. وقد شرع ببناء المدرسة سنة ١٨٧٤ وافتتحت المدرسة أبوابها لقبول الطلاب — غرة تشرين الثاني عام ١٨٧٥ وقبلت ٧٢ طالباً. وبلغ عدد طلابها عام ١٨٨٢ مئتين وثمانين طالباً كان يعنى بهم ثلاثون معلماً. وكانت تعلم العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية والتركية والحساب ومسك الدفاتر والجغرافية والتاريخ والفلسفة وعلم الطبيعة والفقه. وفي سنة ١٩١٤ بلغ عدد طلابها ٣٨٤ بين داخلي وخارجي.

ونحن واجدون أن جبل عامل يأخذ أبناؤه أنفسهم بتجديد المدارس القديمة وتقويتها وإنشاء مدارس جديدة منها، على سبيل المثال لا الحصر، مدرسة حنويه (١٨٧٨) ومدرسة بنت جبيل (١٨٨١) ومدرسة النبطية الحديثة (١٨٨٢) والمدرسة الحميدية (١٨٩٢) ومدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية بصيدا (١٨٩٧) والمدرسة النورية في النبطية الفوقا.

وكانت مدرسة البلمند (تجديد ١٨٣٠) المدرسة الرئيسية لطائفة الروم الارثوذكس في لبنان. لكن منذ الستينات من القرن الماضي أخذت المدارس الكبيرة تؤسس وتفتح أبوابها لقبول الطلاب. وأولى هذه المدارس مدرسة الثلاثة أقمار (١٨٦٦) والتي يبدو أنها فتحت في سوق الغرب أولاً ثم انتقلت إلى بيروت. وكان طلابها يتعلمون، بالاضافة إلى العلوم، اللغات العربية والفرنسية والروسية والانكليزية. وفي سنة ١٨٨٠ أنشئت المدرسة الأهلية في بيروت كما أسست مدرستا كفتين ومار يوحنا الشوير (١٨٨١). وكانت الأولى تعلم العربية والتركية والفرنسية والانكليزية والثانية كانت تقدم لطلابها دروساً في اللغات العربية واليونانية والفرنسية. وتعد مدرسة زهرة الاحسان (١٨٨٢) من أولى مدارس البنات أهمية. وفي سنة ١٩٠٠ أو بعد ذلك بقليل أنشئت مدرسة الروم الارثوذكس في مرجعيون وقد تقدمت هذه في عهد خالنا المطران إيليا ديب، الذي كان مطران صور وصيدا وتوابعهما، قبيل الحرب العالمية الأولى.

أما بيروت فقد أنشئت فيها المدرسة البطريركية سنة ١٨٦٥ على يد غبطة غريغوريوس يوسف البطريرك الأنطاكي والأورشليمي وسائر



□ الكولدج هول في الجامعة الاميركية.

المشرق. وقد كان فيها في سنة ١٨٨٢ نحو مئتي طالب وفيها ١٢ معلماً. وكانت تدرس فيها العربية بفنونها والفرنسية والانكليزية والتركية والرياضيات وعلم الطبيعة وغير ذلك.

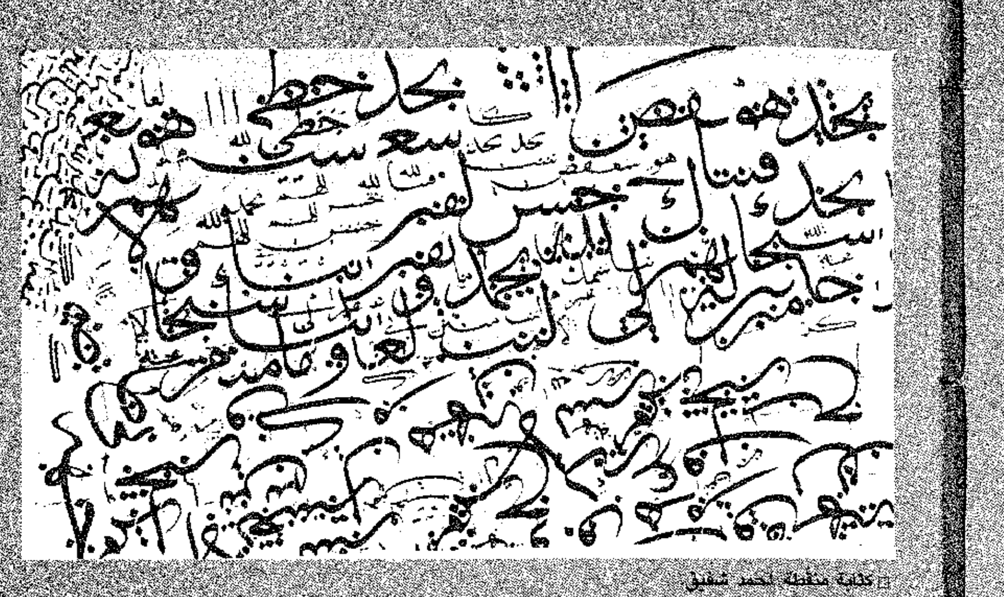
كانت أول مدرسة حديثة للطائفة الاسلامية في بيروت هي التي أنشأها حسن البنا سنة ١٨٦٣ (على وجه التقريب) وقد سماها صاحبها المدرسة الرشيدية قبل أن تنشىء الدولة العثمانية مدارسها المعروفة بهذا الاسم. وكانت تعلم اللغة العربية والخط والحساب والدروس الدينية. وكان من مدرسيها الشيخ إبراهيم الأحدب.

وفي سنة ١٨٩٥ افتتح الشيخ احمد عباس الأزهري مدرسته (الخاصة) التي سماها «العثمانية» (والتي أصبحت فيما بعد تسمى الكلية العلمية الاسلامية) والتي عمرت زهاء عشرين عاماً. وقد «اتسعت دائرتها وجمعت داخل محيطها أقسام التعليم الثلاثة الابتدائي والاستعدادي والعلمي ــ عدا روضة الأطفال. وبهذه صارت كلية وأخرجت للأمة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لأمته من خدمة المدنية في فروع العلم التي حصلها في الكلية الاسلامية».

إلا أن أهم ما جرى في تاريخ التعليم بالنسبة للطائفة الاسلامية السنية في لبنان في القرن التاسع عشر هو تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية سنة ١٨٧٨ في بيروت وصيدا وامتداد عملها بعد ذلك إلى طرابلس ثم إلى أماكن أخرى، على ما ذكرنا من قبل. ●

التشبيه بالحروف في الأدب الإسلامي

آنا ماري شيمل



□ كتابة منقطة لأحمد شفيق

الكتابة والدين، ودور الاسلام

نجد في مدنيات العالم كلها مناسبات خاصة بين الكتابة والدين، ولذلك صنّف أحد مدققي تاريخ الأديان في المانيا، وهو أ. برتولت (A. Bertholet) كتاباً مهماً أشار فيه إلى اهمية الكتابة في جميع الأديان، وكذلك في الخرافات العامة والسحر. فإن مهمة الكتابة هي المحافظة على الكلام الالهي، ولذلك اتفق أهل الدين على أنه يحتم على كل من نسخ كتاباً مقدساً أن يكون في حالة الطهارة الكاملة الروحية والبدنية، وقالوا أن ثوابه كبير في الدارين.

وكان للاسلام دور عظيم في هذا الحيز. فقد أشار العلامة سودربلوم (Söderblom) الأسوجي إلى أن الاسلام هو أوّل من فرّق بين اهل الكتاب وبين أصحاب الأديان الأخرى، وهذا الفرق من أهم ما يتمسك به تاريخ الأديان إلى يومنا هذا. وفي القرآن الكريم كثيراً ما يشار إلى الكتابة والقلم واللوح المحفوظ، ومن هناك أخذ المسلمون يستأنسون إلى هذه التعبيرات ويعطونها اهمية خاصة. وكم من شاعر وأديب، وكم من متصوف وعالم استفاد من هذه الاشارات المجيدة واستعملها في كتاباته.

وفي كثير من الكتب المأثورة ما يدلّ على الدور المهم الذي لعبته الكتابة والخط الذي يسميه عبيدالله بن العباس «لسان اليد» وقيل أن الانسان يمتاز عن سائر أنواع الحيوان بالخط، وأن الخط اهم العلوم وأشرفها.

ومن المعلوم ان في الروايات إشارات إلى الخط الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه في قديم الزمان: «ولو لم يكن من شرف الخط إلا أن الله تعالى انزله على آدم أو هود عليهما السلام وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورة، وأنزل الألواح على موسى عليه السلام مكتوبة، لكان فيه كفاية».

ويروى أنّ سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام فقال: ريح لا يبقى؛ قال فما قيده؟ قال: الكتابة.

وما زال الأدباء يصنفون كتباً في فضائل الكتابة ونقرا في كتب التاريخ أسماء الكتّاب المشهورين من عهد الرسول إلى أيام المؤلف نفسه، واجتهد المؤرخون بأن يحصلوا أخباراً عن الكتّاب الذائعي الصيت، فألفوا رسائل في «أدب الكاتب» دالين على ما يجب على الكاتب الألمعي أن يعلم من العلوم الدينية والدنيوية، وصارت هذه الرسائل — من كتاب الصولي مثلاً في دور خلفاء بني عباس إلى صبح الأعشى للقلقشندي في عهد المماليك في مصر — مصادر وافرة تحتوي على المعلومات القيّمة عن وضع الحضارة وتفرعات الثقافة في تلك القرون. ونجد أيضاً الأخبار عن أساتذة الخط الذين أبدعوا طرازاً جديداً أو أصلحوا في الأسلوب الموروث أو برعوا في حسن الخط.

وقال بعضهم في مرثية ابن البواب الكاتب المشهور:

واستشعر الكتاب فقدك سالفاً ... فجرت بصحة ذلك الأيام

فلذاك سوّدت الدوى وجوهها ... أسفاً عليك وشقت الأقلام

وما كانت هذه العلاقة بصنعة الكتابة محدودة على العرب فحسب، بل فاقهم في العصور الحديثة أهل إيران والهندوستان والدولة العثمانية (لغاية عام ١٩٢٨ عندما أجرى أتاتورك إلغاء الخط العربي في تركيا). ولم يزل الخطاطون يبدعون أنواعاً مختلفة من الطومار والريحاني وخط الغبار والثلث، والتعليق الظريف في إيران والهندوستان، والشكستة (المكسور) والديواني، ومن أنواع الخط الكوفي الشطرنجي أو الكوفي المزهر أو المعقد، أو من الصور المركبة من حروف الهجاء أو من جمل ذات معنى (مثل البسملة أو كلمة الشهادة) ويحسنون هندسة الحروف؛ أما المتدينين والمتصوفين منهم فاجتهدوا في نسخ القرآن الكريم أحسن الاستنساخ راجين بذلك ثواباً في الآخرة، حتى أن بعض الملوك من العرب والعجم كانوا يفتخرون بنسخهم للقرآن بأظرف خط. وسعى آخرون في فهم المعنى المستور للآيات القرآنية بمعونة المعاني السريّة للحروف أو بتعديد عدد الأحرف في كل صحيفة أو في كل آية أو بحساب الأبجد أو ما يشبه ذلك من علوم الوفق والجفر. ومن المعلوم أن للحروف المنقطعة في ابتداء بعض السور القرآنية قيمة خاصة في نظر بعض المتصوفة حتى أن بعضهم اختار «طه» و «يس» أسماء للأولاد. وقال مولانا

□ انا ماري شيمل: ولدت في مدينة ايرفورت الالمانية، نالت الدكتوراه في الفلسفة، اختصاصها التصوف الإسلامي ولا سيما العربي والإيراني والتركي والباكستاني، ولها عدة ترجمات من اللغة العربية إلى الالمانية.

جلال‌الدين الرومي مثلاً ان «آلم» هو «عصاة موسى».

ومن المعلوم أن بعض المتصوفة وأهل المذهب الحروفي قد علقوا أهمية كبيرة لمعنى الحروف وفي نظريتهم أن لكل حرف معنى مخصوصاً يربطه بالذات الالهية أو أنه يكشف عن أسرار الكون أو عن درجات الطريقة. ومثال باهر لهذا التأويل موجود مثلاً في القصائد الهجائية التي ألفها كثير من المتصوفين في الشرق والغرب، كما قال مثلاً شاعر تركي، وهو علاء‌الدين ويزه‌لي، في قصيدة له:

(أ) اعلم: المقصود من الألف هو أن تكون مع الله.
(ب) تبرك بباء البسملة.
(ت) أكثر التلاوة حتى تجد وحدة الذات.
(ث) أثبت في الدين بعون الله.
(ذ) معنى الذال تذلّ نفسك دائماً.
(ع) هي العناية التي تجد بلطف الله.
(ق) قرب قاب قوسين الذي يعرفه العارف...

وإلى آخره. ومثل ذلك معلوم في تاريخ الأدب بالهجاء الذهب، ومعناه أن المؤلف يجمع أمثال في شكل أبيات على سلوك الحروف الهجائية: وهذا موجود في قديم الزمان في مزامير داود النبي، وكثيراً ما نجده عند مسلمي الهند ممن كتب الشعر بالأردو أو السندي أو البنجابي، وسموه «سيحرفي» أو «تيه اكر» أي ثلاثون حرفاً.

وذكر القرآن الكريم اللوح المحفوظ، والقلم الذي كتب كل ما يصادفه الانسان — وقد جف القلم، كما قال الرسول — ولا إمكان لتغيير ما كتبه في الأزل... وذكر الشعراء هذه الواقعة في ابياتهم، شاكين من ظلم القلم، أو مسرورين بأن اسم المحبوب قد رقم في لوح قلوبهم، كما قال فخرالدين أوحد المستوفي الايراني ويقصد الامام علي الرضى:

من ابتداء الكون رقم قلم القضاء حرف محبتك على لوح التراب...

وأحسن الفضولي التركي (المتوفى في سنة ١٥٦٠) حين قال:

قد نقشك قلم القدرة على لوح صدري
وقد انتخبك من مجموعة المحبوبين

كأنه رأى في الأزل كتاباً مكتوباً فيه أسماء المحبوبين وانتخب لنفسه أحداً منهم ورقم اسمه على لوح القلب. ولكن هذا الشاعر اعترف في بيت آخر بالحقيقة المرّة أن حرر الكاتب الأزلي قضاء العشاق بالسواد...

وكذلك أن القلم الأزلي كتب قضاء الانسان وأن الملائكة تكتب أعماله في أثناء حياته، يملئون دفتره بكل ما فعله أو ما نواه. ولذلك كان كثير من أهل الدين والدولة يشتدّ حزناً ونواحاً عندما يتخيلون كتاب أعمالهم ظاهراً في يوم الدين، وكانت هذه الفكرة من الموضوعات المحبوبة عند شعراء العرب والعجم كما قال الفضولي التركي ممثلاً لآلاف من أدباء الاسلام:

قد اسود دفتر أعمالنا من خط الخطايا
تخيلنا يوم الحشر وأمطرنا الدم من أعيننا

(لنغسل ونمحي الخط، مع العلم بأن غسل حبر الأعمال بماء الدموع كان رمزاً معروفاً عند الشعراء كلهم).

القلم والشعر

وإن كان القلم الأزلي مطيعاً لارادة الله الغير مخلوقة رأى الأدباء في القلم العادي عبداً مطيعاً لهم، كما وصفه بعضهم:

وذي عفاف راكع ساجد
أخو صلاح دمعه جاري
ملازم الخمس لأوقاتها
مجتهداً في طاعة الباري

فأصبح القلم لذلك المثال الأمثل للعاشق الذي يسير في طريق الحبيب على سمت رأسه، المقطوع اللسان، لا يفعل إلا ما أمره صاحبه. وزد على هذا أهمية الحديث المشهور إن «قلب المؤمن بين الاصبعين من أصابع الرحمن يقلبه حيث يشاء».

ميكشد آن شه رقمي
دل بكفش جون قلمي

(أي: كتب هذا الملك خطاً، والقلب في كفه كالقلم) كما قال مولانا الرومي الذي استعمل هذا الرمز في كثير من أشعاره. فإن الإنسان في يد النقاش الأعظم أو في يد محبوبه مثل قلم لا يدري كيف يتحرك وأين يذهب، وإن أطاعه فيحسن خط خياته... وقال الحافظ الشيرازي:

إن وجب علي أن أذهب على رأسي في سبيل الحبيب مثل القلم أذهب والقلب كدور والعين باكية.

ويقصد الحافظ الشيرازي عن الحكاية عندما بحث عن القلم المقطوع لسانه الذي لا يستطيع إفشاء سرّ الحبيب. ومناسبة القلم باللسان قديمة العهد وقالوا فيه أن القلم أحد اللسانين، ووصف شاعر فارسي القلم كذي لسانين لأن في رأسه شق وقال: .

صار معي الدهر ذا لسانين كالقلم
وصرت أنا معه ذا وجهين كالقرطاس
وذا مائة قلب كالدفتر

ومن طرف آخر مدح الشعراء والأدباء القلم الذي أمكنهم كتابة أشعارهم ووصف محبوباتهم ومدح خالق اللوح والقلم:

وأخرس ينطق بالمحكمات
وجثمانه صامت أجوف
بمكة ينطق في خفية
وبالشام منطقه يعرف

أو كما قال ابن المعتز في القلم وكتب به إلى القاسم بن عبيدالله:

قلم ما أراه أم فلك يجـ
ـري بما شاء قاسم ويسير
ساجد خاشع يقبل قرطا
راكع قبّل البساط شكور
مرسل لا تراه يحبسه الشـ
ـك إذا ما جرى ولا التفكير
وجليل المعنى لطيف نحيف
وكبير الفعال وهو صغير...

ولكن الشعراء لم يكتفوا بوصفهم القلم المفيد المطيع بل أننا نجد مثلاً في شعر فارسي قديم تشبهاً بين القلم وشعاع الشمس الذي يكتب نصّاً مبيناً على لوح السماء:

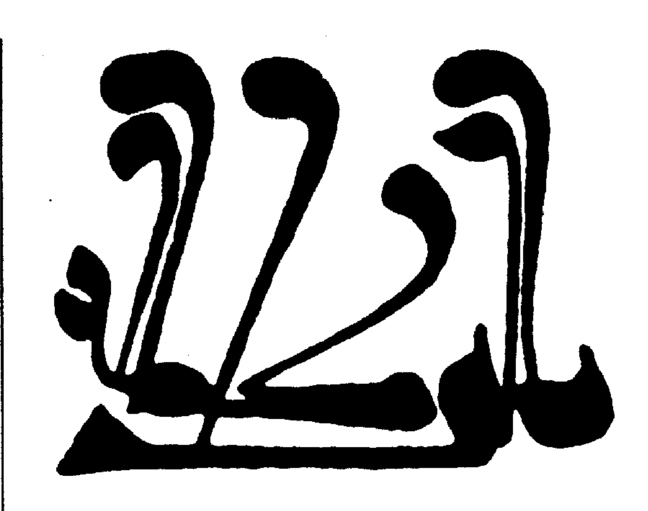
قد كتبت الشمس بقلم الذهب على لوح الصباح الفضي اسم أحمد والقاب أبي تراب.

والقلم أيضاً طير غريب (ولعله في ذلك إشارة إلى بريد الطير الذي كان ترتيبه مشهوراً في القرون الوسطى في بلاد الاسلام) فإن القلم كالطير الناقل الأخبار:





□ حرفي الألف والباء، بخط جلزار (Gulzar).



□ «السلام عليك» بالكوفي معروفة بالخط النيسابوري.

هـو طير ولكـنـه طير عـجـيـب لأن
طعامه من الحبر، وذهابه على منقاره...

ومن السهل أن يشبّهوا أنامل الانسان بالقلم، وأبدع الشاعر الايراني أبو محمد النظامي في أقصوصة «خسرو وشيرين» ورُوي أنه إذا أراد شيرين الأمر بقتل أحد فبيده عشرة أقلام، أي عشرة أنامل (كل واحد منها يكتب أمر الاعدام، لأن كل حركة أنمولة لها يسبب شق قلب عاشق).

ونجد أيضاً تشبيه القلم بالسمك وأصل هذا راجع إلى الآية القرآنية «نون والقلم» ومن الطبيعي أن الشعراء يشبهون أيضاً الدواة بينابيع الحياة التي فيها «ماء الحياة» في قطرات سوداء. ونختم هذا الباب ببيت للحافظ الشيرازي الذي افتخر أن:

صار صرير قلمي في خلوة الكروبين
سماعاً روحانياً في عالم القدس

وقد اكتشف أحد المستشرقين في اسبانيا بعض الأشعار لأبي جعفر أحمد بن خاتمة من شعراء القرن الرابع عشر، ونشرها في مجلة «الأندلس» قبل مدة وجيزة، وفيها رموز كثيرة مأخوذة من صنعة الكتابة، ومنها:

إجلْ عينيك في وشي تعاين
كتاباً والهواء له مداد
حكاني كاتبي في حالتيه
لنا جسم وليس لنا فؤاد

وله أيضاً:

كتبت وشوقي يُملي أسىً
سريرة حبٍّ وشاها الحلم
ولو رمت خطاً لها بسواه
تلهب بين يديَّ القلم

وبيته هذا، وبيته التالي:

أراد يشكو لكم هواه
فالتهبت أحرف الكتابة

شبيهان ببيت نظمه شاعر في مملكة السند في القرن التاسع عشر يقول فيه بالفارسية:

ميخواستم كه نامه نويسم بسوى دوست
كاغذ زكريه ترشده كلكم بآه سوخت

(أي: أردت أن أكتب مكتوباً إلى حبيبي — فابتل القرطاس من بكائي، واحترق القلم من آهي) ويدل هذه المشابهة على أن هذه الكناية كانت معروفة في الغرب والشرق وأنها كانت كثيرة الاستعمال عند الأدباء والعشاق...

وكثيراً ما يجد القارىء مثل هذه الأبيات في الشعر الجاهلي وعند شعراء العرب في عهد الرسول، وقد استفاد منها العالم واسع الشهرة، كرنكو (Krenkow) عند تصنيفه مقالاً حول مسألة مهمة: هل دونت قصائد الشعراء القديمي العهد أم نقلت شفاهياً فقط؟ وقد أثبت أن استعمال كنايات مأخوذة من صنعة الكتابة يشير إلى معرفتهم أن الشاعر يقارن بين الطلل المتروكة والخط، كما قال امرؤ القيس في هذا النصيب:

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط الزبور عسيب يمان

وذكر هو الخط المكتوب على عسيب يماني، وذكر حاتم الطائي الرق في مثل هذا المطلع:

أتعرف أطلالاً ونؤياً مهدّماً
كخطك في رق كتاباً منمنما

وبحث بعضهم عن «رسم كالطراد المذاهب» أو «الرق المكتوب فيه أيام العجم»، وقال الأخطل في الأطلال:

فكأنما هي من تقادم عهدها
ورق نشرت من الكتاب بوالي

حتى أن حسان بن ثابت الشاعر المسلم في عهد الرسول يشبه ديار زينب المتروكة بخط الوحي على رق. وقلّد شعراء العجم هذا التشبيه

مع أنه لا يتفق مع الحضارة الايرانية. قال لذلك مينوجهري وهو من قدماء الشعراء الايرانيين (وهو يومىء إلى الوزير المشهور الصاحب ابن عباد):

رسوم الطلل والديار والدوارس
كأنها توقيع الصاحب على صدر المنشور
قد وقع النسرين على أوراق السنبل
كما تقع على القرطاس خطوط الكاتب

وبعد مدة أصبحت كناية الورق والخط كثيرة الاستعمال فيما بين العرب والعجم فشبهوا بالورق كل شيء ذي سطح بسيط مثل السماء والعين وتراب الصحراء أو ماء الحياض.

وقال لذلك الشاعر التركي الفضولي:

يكتب الدمع الأحمر أساه على مقلة العين ولا يدري أنه لا يقرأ الخط المكتوب بالدم على أوراق حمراء.

ووصف هذا الشاعر الكبير نفسه جمال الشمس الطالعة في بيت آخر وقال:

ليس هذا بلوح الشمس، بل هو خط ذهب في السماء وقد أخذ ملاك بيده ورقاً من كتاب جمالك.

شاهد المسلمون أن خط الروم ومن يليهم من أهل الغرب على العموم كان مقلوباً يكتبونه من اليسار إلى اليمين، فأصبحت عبارة «خط النصارى» في الأدب الفارسي رمزاً لشيء غير مرضيّ وقال الخاقاني في العصر الثاني عشر في إيران:

إن الفلك أكثر انقلاباً من خط نصرانيّ.

يشير بذلك إلى سوء حظه؛ وتبنّي الشعراء في تركيا هذا الرمز الذي يستعملونه كلما أرادوا أن يخبروا عن بلايا الحياة المكتوبة على اللوح المحفوظ.

الخطاطون وأنواع الخطوط والتشبيهات

ولا عجب أن أسماء الخطاطين الكبار كانت معروفة في ملّة تفتخر بكتابتها، وقد يعرف الأدب أسماء ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمي وآثارهم، وأشار إليهم شعراء العرب والعجم، وأمكن مثلاً للشاعر التجنيس باسم ابن مقلة ومقلة العين وقال بعضهم في ذلك:



□ **حرف اللام الف، بخط مغربي.**

سبق الدمع في المسير المطايا
إذ روى من أحب عنه بقلة
وأجاد السطور في صفحة الخد
ولم لا يجيد وهو ابن مقلة

وقال آخر:

تسلسل دمعي فوق خدي أسطراً
ولا عجب من ذاك وهو ابن مقلة

وشبيه بذلك نجد اللعب الظريف باسم «ياقوت»، وتوجد في تذكرة الشعراء لدولة شاه الايراني قصيدة بقلم عصمة الله البخاري مملوءة بتعبيرات صنعة الخط، ومنها:

كان قد ظهر في قلب الليلة وجه المشتري مثلما تلألأت نقط الذهب من حواشي الخط ويصيب ياقوتاً من ابن مقلة من يرى نقش الخطوط المعنبرة على الفضة الخامة...

وقال جعفر جلبي الشاعر التركي في القرن الخامس عشر في ذلك:

إن خط الريحاني في شفتيك
أفضل من خط ياقوت...

ويقصد بخط الريحاني الشارب النابت على وجه الشاب. ومن المعلوم أن خط الريحاني أحد أنواع الخط العربي ذكره الشعراء في أشعارهم خاصة عند مشابهتهم بين البستان وبين كتاب تكتب فيه الصبا أسطر بهية من خط الريحاني، أي تزينه برياحين زاهرة كثيرة الأشكال والألوان.

فإن البستان في نظر الشعراء لوح أو صحيفة يكتب عليها السنبل غزلاً جديداً (كما وصفه الباقي الشاعر التركي الفصيح) وأصبح الندى مثال الخاتم على أوراق مكتوب الأزهار. وقد فهم مولانا جامي الايراني أن الحشحاش النابت من تراب الحديقة «رسالة بعث بها الذين تحت التراب». وبدا لبعضهم أن الوردة ذات الألف ورقة مثل منشور العشق في البستان، وظن آخر أنه قد قرأ في الزنبق «خط الطومار مكتوب بالزعفران» — وكان قلم الطومار على ما نستخلصه من كتاب القلقشندي وغيره «قلم جليل وكان الخلفاء يكتبون علاماتهم به» وأما الزعفران فاستعملوه في مصر لتخليق مقياس النيل في أيام الوفاء، وللتزيين في العيدين أو في المراسم السلطانية، ولذلك يمكن للعاشق أن يدعي أنه «كتب كلمات المحبة في دفتر الطومار» ولكن لا بد أنه بالغ غاية المبالغة الشاعر الذي زعم أن «كاتب الأفلاك حرّر أشعاري بخط الطومار على ورق السماء»...

ومن جهة أخرى نجد الكناية بخط الغبار (المستعمل في بريد الطير مثلاً) وقال الحافظ الشيرازي:

لو وقع بيدي تراب كف قدم حبيبي
لمسحته على لوح بصري كأنه خط الغبار

وقال آخر مثل ذلك في الخط الذي يدعوه «قيرمة» أو شكستة» أي «المكسور» ويشتبه به جسمه المكسور من أجل انكسار خياله... ومن الرموز والاشارات التي تسترعي انتباهنا وتنال إعجابنا هي تشبيه الخط والكتابة بالشارب واللحية النابتة على عذار الشاب التي تسمى في الأدب الايراني والتركي «خطاً». ونصادف هذا التشبيه في قصائد جميع شعرائهم سواء أكانت للحافظ الشيرازي أم للفضولي التركي أم للألوف الآخرين من الشعراء الغير مشهورين. وقال الحافظ الشيرازي في ذلك:

بهذا الرقم الجميل الذي نقشت على وردة الوجه
خططت خطاً على ورق الورد والبستان...

ومثال ثاني نأخذه من ديوان السلطان جم العثماني المنحوس الذي لقي حتفه على يد الفرنج في سنة ١٤٩٥: قال:

كأن طومار البنفسج رقم لدرج خطك
وأنّ دفتر الورد ورقة لرسالة الجمال

وكان التشبيه بين البنفسج والشارب النابت وبين الورد والوجه معروفاً لدى الشعراء منذ عصور كثيرة في الأدب الاسلامي. وشبه بعضهم شارب المحبوب بأحرف سحرية:

كأن خطك طلسم حول شفتيك
يكتب سحراً بالمسك لأجل حلاوتك، يا حبيبي!

وبإمكان كل من يطالع الأدب الفارسي والتركي أن يزيد على هذه الأمثلة.

إن كثيراً من الشعراء غرموا كذلك باستعمال كناية طغراء الكتاب أو عنوانه المرقوم بأجمل شكل والمزين بالذهب أو بالألوان الباهرة وأخذوا تشابك حروفه مثالاً للاطلال وموازنة خطوطه مثالاً لأهداب المحبوب وقد قال في مثل ذلك أحد الشعراء القدماء، وهو أبو داؤد الكلابي وأحسن:

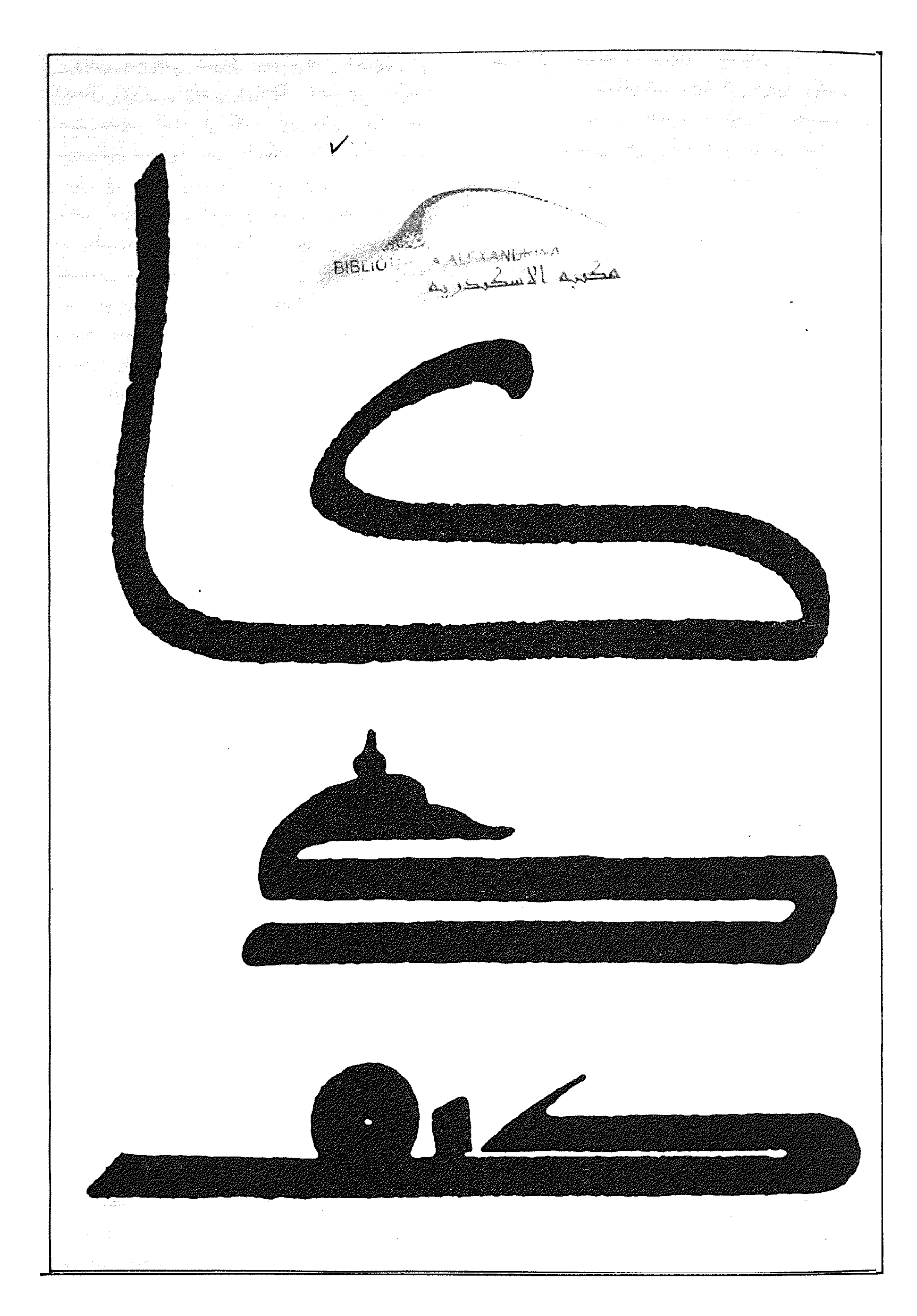
لمن طلل كعنوان الكتاب
ببطن أفاق أو بطن الذهاب

أما الشعراء الايرانيون ومن تأثر بهم فشابهوا حاجبي المعشوق بالطغراء وقد أفاد الحافظ الشيرازي عن أمله:

بأن يأخذ منشور عشقي
طغراءً من قوس ذلك الحاجب...

أو بحث عن مكتوب الوفاء الموعود الذي كان حاجب عين المحبوبة طغرائه، وخاتم عنوانه مأخوذ من دم عيني الشاعر نفسه. ورأى هو، ومعه كثير من مواطنيه، في حاجب العين طغراء مكتوبة بيد الخالق على الوجه القمري... أو «طغراء كتاب الحسن». واعتاد الشعراء الأتراك في الدولة التيمورية على الأخذ بمثل هذه الكنايات. ونورد هنا على سبيل المثال ميرعلي شيرنوائي، الشاعر الشهير في مدينة هراة في أواخر القرن الخامس عشر عندما خاطب معشوقة:

يا من صحيفة عذارك إنشاء خط الأزل
يا من نقطة الأبد طغراء في ديباجة حسنك!



ويدل ميرعلي شيرفي مصرعيه هذين على الجمال الأزلي والأبدي (ونقطة الأبد هي النقطة تحت حرف الباء في كلمة أبد وهي عند أهل التصوف محتوية على الحكمة الأبدية) الذي يتجلى في وجه المحبوب، وهذا يتفق مع طريقة مذهب الحروفية في الشرق الأدنى. ونصادف مثل هذا البيت في أشعار معاصر ميرعلي شيرنوائي، السلطان الايراني شاه إسمعيل الصفوي الذي ألّف ديوانه باللغة التركية أيضاً. وهو تحت تأثير عنعنة المتصوفة ومذهب الحروفية، وقال في أحد أشعاره يقلد أسلوب الحروفية:

يا من آية جمالك عنوان الديوان القديم

وطغراء حجابك بسم الله الرحمن الرحيم!

وهناك تشبيه آخر نجده في آثار بعض الشعراء وهو تشبيه الشمس أو البدر بالطغراء المذهبة، والشمس، في شعر لمولانا جلال الدين الرومي، «طغراء دولة عشق الحق على توقيع الشفق» (وفي هذا إيماء مخفي إلى معشوقة شمس الدين التبريزي). ولله در الشاعر التركي غنى‌زاده الذي ألف قصيدة طويلة في معراج النبي قال فيها:

كتب عطارد حكم هذا السلطان على السماء

وأصبح له الليلة خطاً والأنجم رملاً وغرة القمر طغراء.

ويقول في بيت آخر من هذه القصيدة:

لما أمحى الفلك دمغة الشمس الحمراء

رقم ظل الأرض المخروطي طغراءً عنبرية...

وأدخلنا مثال الطغراء في شعر شاه إسمعيل الصفوي المذكور إلى رمز آخر وهو الكناية بالمصحف. وكان المصحف على العموم مثال معروف عند الشعراء من قديم الزمان، إذ قال فيه ابن المعتز:

والليل في مغربه قد رسخا

مصحف وراق أدق نسخا

وقال أيضاً:

فارس كف ماثل كالاسوار

ذو جؤجؤ مثل الرخام المرمار

أو مصحف منمنم ذي أسطار.

وقال أحد الشعراء السوريين المحدثين وهو أنور العطار في وصفه لنهر بردى:

خط في مصحف الوجود سطوراً

باقيات تختال تيهاً وكبرا...

ولم يستعمل الشعراء كلمة المصحف في معناها الأصلي، أي كتاب، فحسب بل أننا نجدها أيضاً بمعنى «مصحف شريف» عند كثير من الشعراء الغير العرب، وعندهم كثر تشبيه الوجه الحسن بالمصحف الشريف لأنه يحتوي على كل ما خلقه الله من آيات الجمال، وهو «نسخة الأسرار الالهية». وكان الممثل الشهير لهذا الطرز الشاعر الحروفي التركي النسيمي المعدوم سنة ١٤١٧ لأجل زندقته، وقد قال — واتبعه عدد غير معدود من شعراء إيران وتركيا والهندوستان:

حجاب عينيك وأهدابك وشعرك المسكي أم الكتاب وصار إمام أهل التوحيد وقرآنهم.

وكتب أحدهم في بلاد السند:

وجهك مثل المصحف بلا سهو وغلط

قد كتبه قلم القضاء من مسك فقط

عينيك وفمك آية ووقف، حجابك مدّ

أهدابك إعراب، خالك وشاربك حرف ونقط

ومع أننا لا نستحسن المقايسة بين القرآن والوجه فإننا نعترف أن مولانا جلال الدين الرومي أحسن استعماله إذ قال:

الأوراق في البستان كأنها مكاتيب مرقومة عليها بالخط الأخضر.

حروف الهجاء كرموز في الأدب الاسلامي

نرغب الآن في ذكر استعمال حروف الهجاء كرموز في الأدب الاسلامي.

(أ) كان لحرف الألف أهمية فائقة عند أهل التصوف لأنه في مقام «أحد» وصار رمزاً لوحدة الله المطلقة، وكثيراً ما يحكى في المناقب بأن فلان أو فلان لم يتعلم من الحروف الهجائية إلا الحرف الأول واستغنى عن الحروف الباقية لأن الألف تشتمل على كل شيء كما أن الوحدة الالهية منبع كل ما في الكون، كما نقل عن سهل التستري الصوفي (المتوفي عام ٨٩٦هـ) أنه قال «إن الألف أول الحروف وأعظم الحروف وهو الاشارة في الألف أي الله الذي ألّف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء». وقالوا أن يونس

أمره الشاعر التركي (المتوفي سنة ١٣٢١ع) اكتفى بالألف وقال «ان معنى الكتب الأربعة الكامل في ألف واحدة»، ورووا مثل هذا عن شاه عبداللطيف السندي المتصوف في القرن الثامن عشر، وذكر هذا الشاعر الكبير «الحرف الحقاني» الذي في ابتداء «سبق الألم» وأيضاً في «ورق الوصال» وقال:

قد وضعت ميماً في روحي (أي اسم محمد).
وقبلها ألفاً (يعني (الاسم الأعظم).

وقد قارن الشعراء الايرانيون هذه العلامة الصوفية بتشبيه آخر وهو أن المحبوب الظريف يشابه الألف وقال مثلاً الحافظ الشيرازي وهو يومي إلى حكايات المتصوفة المقدم ذكرها:

ليس على لوح قلبي إلا ألف قامة حبيبي
ما العمل الآن؛ ما علمني أستاذي غير ذلك!

وتدل على هذه المشابهة البارزة بين قد الألف والقامة الانسانية حكاية جاءت في كتاب الأستاذ إسمعيل حقي بالطه‌جي‌أوغلي عن صنعة الخط عند الأتراك، قال فيها أن بعض أساتذة الخط في استانبول إن أراد أن يبيّن الفرق بين ألف مرقومة بقلم الأستاذ مصطفى الراقم وألف مكتوبة بيد محمود جلال‌الدين كان يقوم — وكان طويل القامة واللحية — رافعاً رأسه مادّاً لحيته فاتحاً عينيه كالغاضب ويقول: «هذا ألف مصطفى الراقم» ثم كان يقوم خاشعاً متواضعاً جارّاً لحيته على صدره مطبقاً عينيه: «هذا ألف محمود جلال‌الدين». وفهم التلامذة الفرق بين الطرازين بغير صعوبة. وقد قال ابن المعتز وما أبدعه:

وكأن السقاة بين الندامى
ألفاتٌ على السطور قيام

وأحسن شاعر مشهور منسوب إلى الطريقة المولوية في استانبول وهو الشيخ غالب (المتوفي عام ١٧٩٩) هذا التشبيه في أقصوصته المؤثرة «حُسْن وعشق» وروي كيف درس الولد المسمى بعشق حروف الهجاء في المكتب وكان كل حرف يحتوي على ذكرى صديقته «حسْن».

فكلما قرأ ألفاً ذكر قامتها
وارتفعت نوحته إلى العرش
وكلما قرأ جيماً دل ذلك على صدغها...

وهكذا في الحروف كلّها — كما فعله أيضاً شاعر سندي في القرن السابع عشر وقد ترجمنا

وأعطى الفضولي الشاعر التركي الشهير الألف معنى آخر فإنه رأى في السهم الذي ألقته أهداب المعشوق في عين العاشق الباكية «ألفاً مكتوبة بالدم». أما الشعراء الحديثون فعندهم تشبيهات غير مستعملة ولكنها ظريفة، مثلاً إذا قارن أمير الشعراء أحمد شوقي عواميد قصر الحمراء في غرناطة بألفات متوازنة جميلة.

(ب) أما الباء فليست من الحروف الكثيرة الاستعمال في رموز الشعراء، وإن كانت ذات أهمية عند أهل التصوف والحروفية لأنها الحرف الأول في القرآن المجيد، وقال بعض المتصوفين الايرانيين ان حرف القرآن الأول الباء وحرفه الآخر السين ومعنى هذين الحرفين «بس» أي بالفارسية «كاف» لأن القرآن يكفي للدنيا والآخرة.

ومنهم من يرفع من شأن النقطة تحت الباء التي هي «رأس البسملة» ظانّاً أنها منبع الحروف كلها. ونادراً أن نصادف الباء في الشعر، وقال أحد الشعراء القدماء في تركيا:

إن الباءات قد سترت رؤوسها
وصارت النقط لهم دموعاً...

(ت ث) ومثل ذلك يصاب أيضاً في التاء والثاء.

(ج) وقد ذكر حرف الجيم ككناية الصدغ أو الخصلة، وهذا من التشبيهات المعروفة عند العرب والعجم. ونجد أيضاً بعض الشعراء الذين يرون أذناً جميلة الشكل في حرف الجيم.

(د) وكثيراً ما يقرأ القارىء أن قامة العاشق المشبهة بالألف قد صارت دالاً إذا غمره الحزن. حتى أن الفضولي التركي تغالى في مثل هذا التشبيه إذا شكى من آثار ظلم محبوبه:

قد حنت قامتي، وإن نسيت رأسي فأنا معذور لأن لا توجد نقطة على الدال.

وأحسن مولانا جلال الدين الرومي هذا التشبيه وزاده تجنيساً زائداً إذ قال أن قلوب (دلها) العاشقين أصبحت دالات (دالها).

(ر) أما حرف الراء فقد ذكر الشعراء بالسكين أو الخنجر، ومن السهل عليهم كذلك أن يشهبوه بالهلال، وقد وصف الباقي الشاعر



□ رسم كتابي باسماء الكواكب (١٨١٢).

التركي المشهور (المتوفي سنة ١٦٠٠) الهلال في أوائل شهر رمضان:

أهو نون إذ يبدو في آخر شعبان
ام راء في ابتداء رمضان؟

(س) أما السين فهي بلا شك مثال الأسنان او قل بالأحرى مثال منشار الأسنان الذي يجرح شفتي العاشق ويمنعه من أن يقبّل المعشوق حتى أنه يقطع حياة العاشق المسكين الذي يرى مثل هذا الحرف في كتابه ويذكر عند قراءته أسنان المحبوب... كما وصفه الشيخ غالب في أقصوصته المذكورة. ويخالفه في ذلك مولانا جلال الدين الرومي الذي مدح تبسم معشوقه شمس الدين التبريزي قائلاً:

أما شمس التبريزي الذي هو فخر الأولياء
فصارت سين أسنانه لي مثل يّس

ويمكننا أيضاً أن نرى مع بعض الشعراء في السين المشط الذي تمشط به البنت اللطيفة خصل شعرها.

(ش) وربما أصبحت النقط الثلاثة على الشين دموعاً سقطت من عين العاشق.

(ص) أما الصاد فأحب الشعراء تشبيهها بالمقلة الانسانية، كما فعل ذلك جلال الدين مثلاً، او بحجاب العين، ومن أظرف ما قيل في هذا الحرف أبيات ابن المعتز في إحدى خمرياته حيث استعمل التجنيس المشهور خط (بمعنى اللحية، الشارب) وخط (من الحروف) الذي قدم ذكره، وقال:

كأن خط عذار شق عارضه
ميدان آس على ورد ونسرين
وخط فوق حجاب الدر شاربه
كنصف صاد ودار الصدغ كالنون

(ل) أما اللام، فنجدها كالمثال المشهور لخصل الشعر.

(م) وكان أهل التصوف ومذهب الحروفية يعلقون أهمية كبرى على حرف الميم وهذا لأن:

از أحمد تا أحد يك ميم فرق است
جهاني اندر آن يك ميم غرق است
كان الفرق من أحمد إلى أحد ميماً واحدة
وقد غرقت الكائنات كلها في ميم واحدة

وكان حرف الميم رمزاً للرسول الأكرم محمد، وفهم المتصوفون ومن على رأيهم أن الفرق بينه في صفته كإنسان كامل وبين الله تعالى الذي هو أحد، ميم واحدة، ولما كان عدد الميم في حروف الأبجد ٤٠ قالوا ان بين الانسان وبين الله جل جلاله أربعين مرتبة يجب على السالك أن يرتقيها في سلوكه نحو الحق، كما كتب ذلك مفصلاً عبدالكريم الجيلي في رسالته المسماة

بكتاب الأربعين مرتبة. أما الشعراء الغير متصوفين فما زالوا يشبهون الميم بالفم، كأن فم كل محبوب صغير ضيق للغاية، والفم الصغير كان يعدّ مثال الجمال منذ القرن الحادي عشر أو الثاني عشر تقريباً في بلاد العجم، فشبهوا الفم الجميل بميم على صحيفة البدر.

وكانت الميم رمزاً للضيق على الاطلاق، كما قال بعضهم مشيراً إلى ميم الفم الضيق وفي الوقت نفسه إلى سوء بخته:

صارت الدنيا لي مثل ميم من أجل ميمه...

وتنهد الظهير الفريابي الايراني:

ما بقي من وجودي فيما بعد إلا حرفين
قلب (ضيق) كالميم وقامة مثل خلقة النون...

وإن شبّه يونس أمره مقلة العين بالميم فهذا لا يعدو أن يكون تشبيهاً استثنائياً. أما في الأدب العربي من الدور العباسي فأبدع ابن المعتز:

قدح... تكتب فيه كف المزاج لنا
ميمات سطر بغير تعريق...

(ن) وكانت النون في دولة العباسيين مثال الهلال، ولكن في الأكثر نجدها رمزاً للصدغ،

نون الصدغ معجمة بخال

كما وصفها ابن المعتز في كثير من أبياته، وكذلك الفضولي التركي بعد مضي سبعة قرون في بيته:

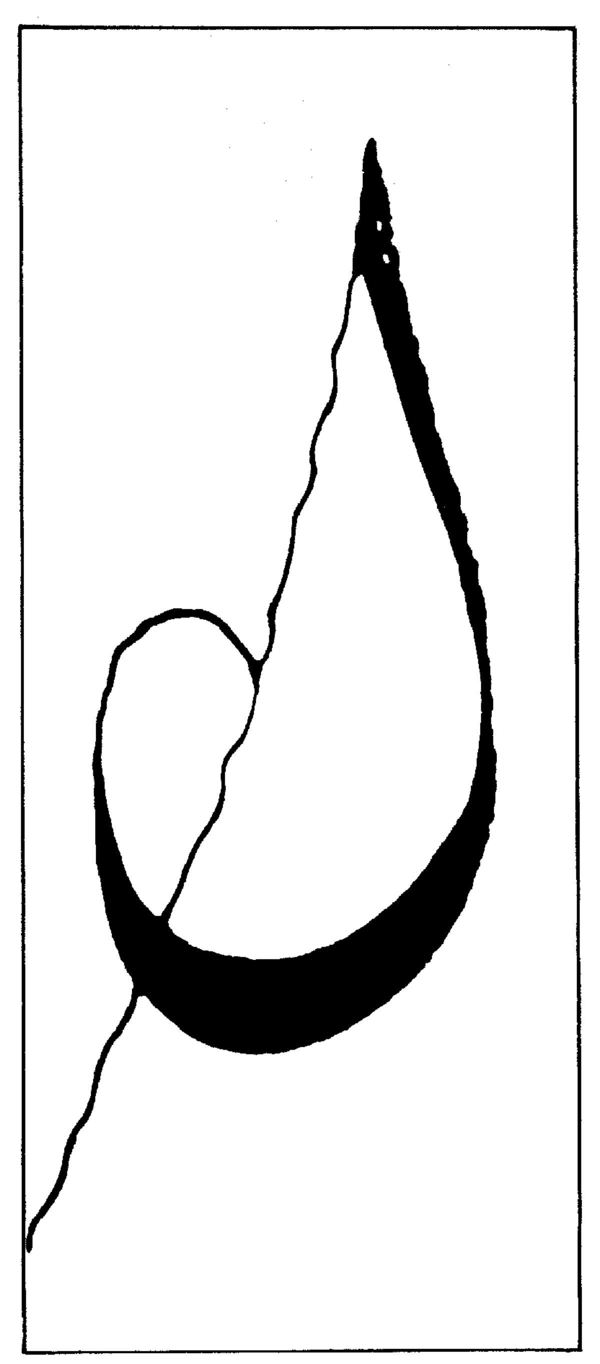
قامتك نهال السرو، وحجابك نون على هذا النهال
وخالك مثال نقطة النون على هذا الغزال المسكي..

ومن الطبيعي أن مناسبة النون بالآية القرآنية من جهة وبالسمك من جهة أخرى أمكن الشعراء أن يستعملوها في وصفهم «سمك النون» أو «سمك القلم» ومثل ذلك.

(و) أما الواو فقد رسمها الخطاطون في تركيا في شكل زورق له مقاذيف إذا كتبوا كلمات الأمنت؛ ولكن هذا الحرف لم يستعمل في كثير من التشبيهات، وعلينا أن نرجع مرة أخرى إلى ابن المعتز الذي قال في «قهوة زوّجت بدمع»:

مثل نسيج الدروع أو مثل واوا
ت تدانت سطورها في كتاب

(لا) وكان حرف لام ألف أحد الحروف المحبوبة عند الشعراء والأدباء، ويوجد فيه حديث



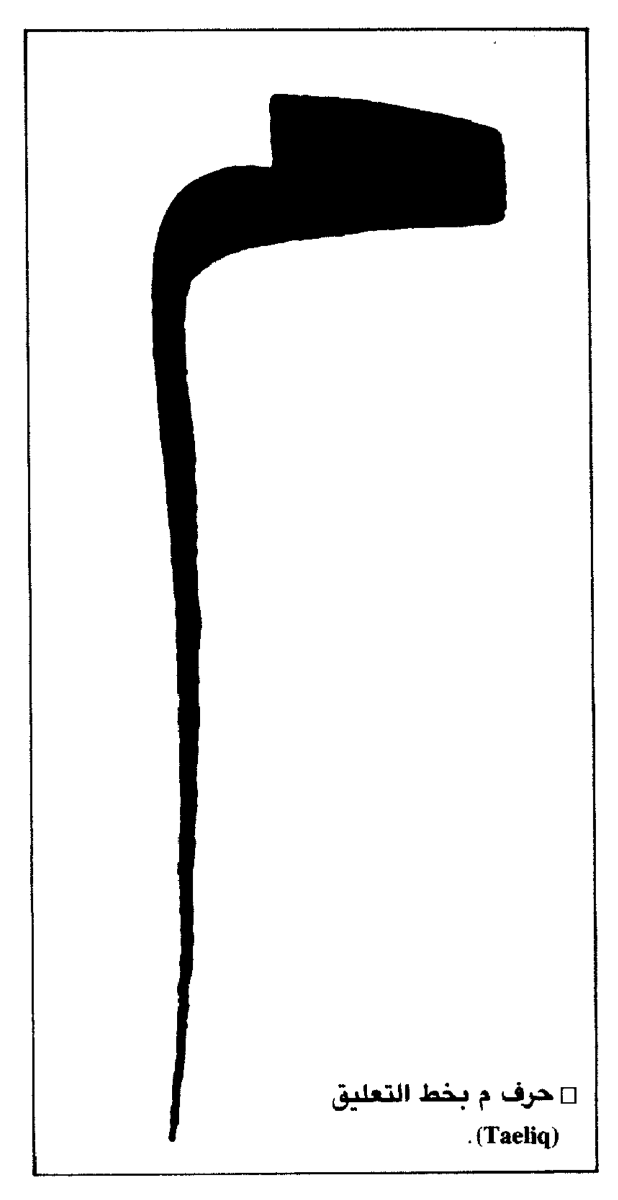
□ نموذج عن حرفين متصلين.

شريف؛ رواه الشيخ أبو العباس البوني في كتابه «لطائف الاشارات في أسرار الحروف المعلومات»: «يروى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، كلّ نبي مرسل بم يرسل به قال: بكتاب منزل. قلت: يا رسول الله، أي كتاب أنزل على آدم؟ قال: أ ب ت ث ج إلى آخره. قلت: يا رسول الله كم حرف فيه؟ قال تسع وعشرون.

قلت: يا رسول الله، عددت ثمانية وعشرين. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرّت عيناه، ثم قال: يا أبا ذرّ، والذي بعثني بالحق نبيّاً ما أنزل الله تعالى إلا تسعة وعشرين حرفاً. قلت: يا رسول الله، فيها ألف ولام. فقال عليه السلام: لام ألف حرف واحد، أنزله على آدم في صحيفة واحدة، ومعه سبعون ألف ملك، من خالف لام ألف فقد كفر بما أنزل على آدم ومن لم يعد لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه. ومن لا يؤمن بالحروف وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار أبداً».

قال أحد الشعراء في عهد الرسول:

أقبلت من عند زياد كالخرف
يخط رجلاي بخط مختلف



□ حرف م بخط التعليق (Taeliq).

يكتبان في الطريق لام ألف

ونستدل من هذه الأسطر أن لام ألف كان يعتبر حرفاً واحداً في ذلك الوقت القديم. وصارت فيما بعد رمزاً لمقارنة شيئين، مثلاً تعاقب جيشين أو معانقة العاشقين كما استعمله الحريري وكثير من الأدباء في النظم والنثر، وتبنى الشعراء في بلاد العجم هذا الرمز الظريف وقالوا:

عانقته عناقاً مثل لام ألف

ونصادف التشبيه نفسه في اللغة السندية وقال شاعر مملكة السند الأكبر، شاه عبداللطيف، في رسالته مخاطباً كاتب القضاء الأزلي:

يا كاتب مثلما علقت الألف باللام
فكذلك صارت رابطة الحبيب بقلبي

وربما كانت المناسبة التي يشير إليها اقتران اللام بالألف غير مفيدة، كما قال مولانا جامي في «تحفة الأبرار» أن التردد على فاسق الناس مضرّ لخلق الشاب كما أن الألف المستقيمة القد تصبح عوجاء عند اقترانها باللام فتصبح تابعة لمثال الحرف الأعوج.

لم يكتف الشعراء باستعمال مختلف الحروف في تشبيهاتهم بل شبهوا كذلك النقط التي على الأحرف بالخال الذي يزين وجه المحبوب، وقال بعضهم:

لا تظن أنه خال، بل هو نقطة رقمها كاتب ديوان الجمال.

وفاقه الحافظ الشيرازي عندما نظم:

لا نستطيع أن نضع نقطة خالك على لوح البصر، وربما وجب علينا أن نطلب حبراً من إنسان العين.

وأصبحت العين ذاتها أيضاً من موضوعات المقايسة، ومن الطبيعي أن يشبه الشعراء الأهداب بالقلم، وصار إنسان العين الأسود «لوحاً أسود ينقش عليه خيال خط (أي شارب) الحبيب». ولكن الفضولي تأسف لأنه في هذه الحالة يضيع الخط الحسن لأنه يصبح «كتابة سوداء على الأسود، فلا فائدة لها». (ومن المعلوم أن الخطاطين في القرون الوسطى أحسنوا الكتابة بالخط الملون على قرطاس ملون أو مذهب، والبيت المذكور يومىء إلى هذه الصنعة: الخط الأسود



□ حرف ج من مخطوط مغربي.

على لوح العين الأسود، أي على إنسان العين، لا يرى كما ينبغي). ووصف بعضهم العين بأنها دواة سوداء فيها الحبر الأحمر (وهو الدموع الدموية)، كما قرأت أيضاً في شعر هندي — إسلامي قديم العهد أن «العيون مثل المكتوب: بياضها القرطاس، خطوط الكحل فيها مثل الحروف، إنسان العين مثل المهر، وأهداب الجفون المدهونة لائقة بأن تلصق بها صمغ الظرف...».

ليس بإمكاننا أن نعدّ جميع تفصيلات هذه الصنعة وتفرعاتها من تلاعب الألفاظ الذي برع فيه الحريري مثلاً، والمعميات التي أوجدوها في إيران وبلاد الهند؛ وبإمكان كل من طالع تاريخ الأدب في بلاد الاسلام أن يضيف أمثالاً غير معدودة إلى ما دوّناه أعلاه. وسيجد في جميع هذه التشبيهات لذة غير منتظرة كما قال شاعر تركي:

من كان قلبه ضيقاً مثل البرعم ينفتح مثل الورد. (عند قراءته كتاباً)

لأن الكتاب هو وردة ذات مائة ورقة في فصل الربيع!

* * *

الخط لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقول، ووضى الفكر، وسلاح المعرفة، وأنس الاخوان عند الفرقة، ومحادثهم على بعد المسافرة، ومستودع السّر، وديوان الأمور.

(إبراهيم بن محمد الشيباني)

قال سيدنا علي بن أبي طالب: عليكم بحسن الخط فإنه مفتاح الرزق. ●



عندما كانت الولادة تتم بدون طبيب

بقلم: جاك جليس   تعريب: د. منى فياض كوشراني

لكل مجتمع «ولادته»، وإذا كان الوضع عملية طبيعية، فإنـه يتعلق كذلك بالسمات الثقافية وبالتقليد الديني، وبدرجة انتشار العلوم الطبية في البيئة التي يتم فيها الوضع.

ففي فرنسا القرن الثامن عشر، كان الحمل والوضع مرادفين للحصر والقلق والألم عند المرأة ومن حولها.

وغالباً ما كانت الأجواء المحيطة بالولادة مأساوية: فالأعمال الشاقة التي تقوم بها النساء خلال فترة الحمل، وفقر الكالسيوم المتواتر عندهن، لهما نتائج بالغة السوء على صحتهن، هذا إذا لم يسلمن الروح فجأة أثناء عملية ولادة لا نهاية لها.

ومع أن عدد الأطفال المولودين كثر، فإن أكثر من واحد كان يقضي أثناء الولادة أو في الأيام التي تليها مباشرة.

□ دراسة تتناول هذا الموضوع في العصر الأوروبي الحديث: القرن السابع عشر ــ الثامن عشر ــ التاسع عشر



وهذه الظاهرة، تثير ما يكفي من الدهشة للمبالغة في اهميتها. لكن نسبة وفيات الأطفال عند ولادتهم ارتفعت في القرن التاسع عشر مما جعلها تثير خوف حصول نقص سكاني، هذا بالإضافة إلى شيوع عدم تقبل فكرة موت الأطفال تدريجياً.

وهكذا أصبحت «الداية»(*) موضع إدانة لأنها متهمة بالمجازفة بحياة الأجيال اللاحقة بواسطة «روتينها القاتل» واستدلالاتها المشؤومة، وبذلك يكون قد حان وقت القابلة القانونية.

ثقافة ريفية نسوية

لقد اكتشف الطبيب، وهو رجل المدينة، إنسان الحقول في أواسط قرن النور، وظهر له مجبولاً بالحيوانية مما أثار خوفه.

ولم يغب «المشعوذ» و «الشافي» أبداً عن الريف، وكان اللجوء لجرّاح المدينة المجاورة يتم من وقت إلى آخر. لكن فكرة استدعائه من أجل امرأة تعاني ألم الولادة ما كانت لتخطر على بال إنسان. حتى أن المرأة التي تعاني بالذات ما كانت لتقبل بهذا الأمر، لانعدام الثقة بالرجل في هذا المجال. كانت عملية الولادة في فرنسا الريفية في العصور الكلاسيكية، من اختصاص النساء، ولا يمكن أن تتم أبداً دون حضور «الداية».

في القرية أو المزرعة، تلجأ المرأة التي تحس بآلام الولادة إلى الجارة أو القريبة، والداية غير مختلفة إطلاقاً عن هؤلاء النسوة اللواتي يتجمعن حول المرأة، لكن حالفها الحظ ذات يوم، أو دلتها غريزتها الفطرية، فعرفت كيف «تتصرف» لكي تخلّص الأم، وذلك بإعطائها الثقة لوضع الطفل حياً، بينما كان الأمل مفقوداً. وبذلك كوّنت سمعتها، وصار من المفضل استدعاء هذه «الأم الطيبة» بالذات من الآن وصاعداً.

إن وظيفة الداية في القرية أو المزرعة غير مرغوبة لأنها تتضمن التفاني والنزاهة. وهي تفرض واجبات دون مقابل جدير بها. إنها تأدية خدمة حباً بعمل الخير. المطلوب من «الداية» أن تكون دقيقة، وأن تسرع عند أول نداء، لذلك يجب أن تكون قريبة، فلهذا من الضروري أن يكون لكل قرية أو مزرعة «أمها الطيبة» أو «أمها العاقلة».

ومن الضروري أن تكون قد تحررت من أمومتها هي ومن أطفالها حديثي السن. ففي (Rioz)في مقاطعة كونتيه (Conté) في فرنسا، رفضت الجماعة الداية التي اقترحها القس، لأنها هي ذاتها لا تزال في سن الوضع مما يمنعها من مساعدة الأخريات في الوقت الذي تكون فيه حاملاً أو في حالة الوضع وما شابه.

التحلي بالشجاعة

إن الداية، بما أنها هي نفسها منتمية للجماعة، تعرف كل امرأة تقوم بمساعدتها على الوضع. إن معرفتها تعتمد على الملاحظة، وسلوكها لا يهدف إلّا: إلى إعادة الثقة وإراحة من تقوم بتوليدها، لذلك تترك لها الداية كل الحرية في الحركة، الكلام، الصراخ، البكاء، وباعتماد الوضعية التي تراها أكثر مناسبة. وفي عام ١٧٨٦م يرجع قس إحدى القرى الفرنسية، تكامل صحة الأطفال الجسدية والعقلية إلى تواضع ودماثة الأرملة (Callette) «الداية» الصلبة ذات الستين عاماً: «إن نجاحاتها الميمونة في هذا المجال، تبرهن أنها عرفت معلمة جيدة... ويقال أنها دمثة، طويلة البال، تدعو النساء اللواتي يستعنَّ بها إلى التحلي بالصبر. كما أن الأطفال المولودين بواسطة عنايتها يتمتعون بتكوين جيد: فليس هناك من هو أحدب، أو أعور، أو أعرج، إنهم يتكلمون جيداً ويلفظون بدون أخطاء».

إن معرفة الداية التجريبية غالباً ما تفعل أكثر من أي طبيب، إنها تعرف كل امرأة تقوم بتوليدها، وتجد الحركات الفاعلة التي تحتاجها المرأة من خلال تجاربها الماضية. ومن الأولويات عند الداية اختصار عذابات المرأة المتألمة، لكن هذه الرغبة غالباً ما تجعلها تستعجل الولادة بشكل خطر. وهذا ما يدينه الأطباء والجراحون بشكل قاطع. ومن الطرق المتبعة للتعجيل في الولادة كانت إجلاس المرأة على طرف مقعد أو سرير والضغط على بطنها بشدة، مما يعرّض المرأة للتمزقات الداخلية، كما أن الممارسات

(*) Matrone.

MONTODON,
Cr- devant PATISSIER,
Boulevard Bonne - Nouvelle,
Et actuellement CHIRURGIEN - ACCOUCHEUR,
Demeure présentement rue et porte-St.- Denis, maison du Limonadier, au 2e. div. Bonne-nouvelle. A PARIS.

□ هذا إعلان احد المولّدين في القرن الثامن عشر، حيث الحمل والولادة كانا مرادفين للحصر والقلق.

السحرية، الصلوات والتغريمات (الرقية) والحجاب والشراب كانت شائعة.

إن تغاضي المجتمع يسمح بهذه الممارسات، حتى أن الجماعة، كانت أحياناً تؤلّه «الداية»، إذ أنها هي التي تكمل عمل الطبيعة وتعيد تشكيل الأنف والأذنين أو تقطع عصبة اللسان.

حسب النموذج المثالي الذي اتخذه المجتمع لنفسه. وهذه الممارسات السحرية التي تمارسها الداية تحدد كذلك مستقبل المولود الجديد ومصيره.

من الملاحظ أن هذه الممارسات محاطة بالكتمان والغموض، وخاصة بالنسبة للرجال الذين كانوا عامة منبوذين من هذا الإطار، فماذا يمكن أن يفعلوه في مثل هذه التجمعات النسائية؟ أكن يبدين أي اهتمام بنصائحهم؟ ألم يكن الزوج بحد ذاته معتبراً كمتطفل؟ أنه لا يدخل المسرح إلا بعد حصول الولادة، وأحياناً بشكل مسرحي. (إذ أن الرجل هو الذي يلازم السرير بعد الولادة بدل زوجته في بعض المجتمعات).

لكن هذه الندوة النسائية الخالصة لا بد وأن تسبب بعض القلق. فالقس لا يستطيع حضور الولادة حفاظاً على الحشمة. وهكذا كانت الكنيسة تشك بوجود بعض التصرفات الغامضة المخالفة لتعاليمها. وتحذر من «أسرار السحر الصغيرة الأنثوية» وتنصح القساوسة والأشخاص الذين يرغبون بممارسة مسيحية بأن يراقبوا عملية الولادة.

ومن البديهي بالنسبة للكنيسة بأن تتعذب المرأة، وهي الرمز لخطيئة حواء، لكي تعطي الحياة. ذلك أن المرأة التي تضع هي حكماً مذنبة ومدنسة، والمخاض يسمح لها بالتكفير عن خطاياها.

وبينما كانت الداية المتهمة بالسحر تذهب إلى المحرقة في القرنين الخامس والسادس عشر، صارت تمنع عن الممارسة في القرن الثامن عشر من أجل ممارساتها البربرية واللاإنسانية، فالمحاكمة صارت أقل تسرعاً والحكم أقل قسوة، لكن المقصود عبرها لم تكن الداية بل طقوس

الولادة، تعبير الثقافة الريفية المتشربة بالوثنية. ذلك أن الكنيسة مقتنعة بأن الداية هي التي تؤمن ضبط جماعة النساء، وفيما بعد الجماعة الريفية كلها.

لقد دعيت الكنيسة للاهتمام بالداية بواسطة مسألة التعميد..

إن مصير المولود الروحي غالباً ما يتحدد بشكل خطر أثناء الولادة عندما تكون هذه الأخيرة صعبة أو غير طبيعية. لذلك يصبح الحل الوحيد أمام الخطر الذي يتعرض له الطفل، هو تفويض الداية سلطة تعميد الطفل.

لذلك بذلت التراتبية الكنسية الكثير من الجهود، بدءاً من عام ١٦٦٠م، من أجل اعتماد داية أو مولّدة واحدة للجماعة، إذ أن وجود خمسة، ثمانية أو عشرة مولدات في الجماعة الواحدة، كان يجعل رقابة المخاض صعبة جداً، ولا يسمح بالتأكد من أن التعميد لم تقم به امرأة جاهلة بأصوله.

وبفضل الزيارات الرعوية التي صارت أكثر انتظاماً للأبرشيات في حوالي ١٥٥٤ ــ ١٥٦٣، صار باستطاعة المطران أن يمنع تدريجياً ممارسة المهنة، سوى للداية المحلّفة للقيام بذلك. وهكذا حصلت الكنيسة على خضوع تلك التي نازعت القس دوره في الرعاية الأخلاقية للجماعة لمدة طويلة، وصارت المولدة التي حلفت القسم أمام تجمع النساء، تشجع تدخل الكنيسة في أمور الجماعة، خارقة بذلك تضامن نساء القرية.

وقاية القوم

لقد اتفق المولدون والاداريون من جهتهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر من أجل إقرار إدانة الدايات الريفيات التجريبيات دون عودة. لكن هذه الحركة لم تتوسع إلا بدءاً من عام ١٧٦٠، وهكذا ينتقد أحد مسؤولي الادارة الريفية في عام ١٧٨٤ الولادات بأنها تتم: «مع الأسف على أيدي نساء جاهلات ليس لديهن أية معرفة تشريحية للأجزاء التي يتوجب عليهن التعامل معها... وإن جهلهن قد يؤدي إلى تمزقات مهمة عند الأم قد تمنعها من الأمومة فيما بعد، هذا بالاضافة إلى احتمال وفيات الأطفال على أيديهن...».

ولقد تكاثرت هذه الانتقادات، مع أن الأمور المنتقدة، للأسف، لم تكن حديثة العهد، إلا أنه من الملاحظ بروز وعي جديد متعلق بمذابح حقيقية تحصل للمولودين الجدد، مما يستدعي رد فعل ملتزم.

وهذه الارادة الجديدة التي برزت في ممارسة رقابة سياسية على المولدة يجد تفسيره في بواعث إنسانية تكاثرية، أي تشجع على الاكثار من المواليد، وتهتم بمقاومة الاجهاض وقتل الأطفال المتعمد، وتضطهد الداية، لأنها غالباً ما كانت متهمة بأنها متواطئة.

وكان من المتأمل فيه، أن تقل نسبة الوفيات بين الأطفال وأن يتأمن مستقبل السكان عندما يصار إلى تعليم القابلات في صفوف مفتوحة ومدعومة في الدولة.

وكان الدافع لهذه الخطوات، هو الفكرة الموجودة لدى الأوساط الحكومية في أن الدولة تفقد من عدد سكانها باضطراد. وهذا لم يكن صحيحاً في آنها، إذ أن الزيادة في السكان لم تبلغ أبداً النسبة التي بلغتها في القرن الثامن عشر بفضل تدني مستوى الوفيات الكبير. لذلك تحملت الدولة تدريب عدد من القابلات يتراوح من ١٠ إلى ١٢٠٠٠، وكانت المرّة الأولى التي برزت فيها الارادة الملكية في محاولة للتأثير على مستقبل البلد السكاني.

رجل الفن (الطبيب)

لقد مدَّ الأطباء الممارسون، يداً قوية للدولة والكنيسة، والدافع لهذا الاهتمام كان الحفاظ على «القوم» وجعل احترام بعض قوانين التوليد مرشداً في السلوك. وصار المولّودون يميلون لاعتبار الولادة عملاً طبياً، والمرأة في المخاض مريضة، وتجب معاملتها كذلك، فهم يريدون بذلك استبدال معرفة الدايات التجريبية، بمعرفة معقلنة، محددة، مقننة، إذ أن معرفتهن هي بنظرهم ليست سوى ثمرة الخرافات. وهم يريدون استبدال مولدة الريف «التي غالباً ما تكون مشاهدة فقط لعمل الطبيعة». بأخرى تقدم العناية وتتعرف على الصعوبات من أجل إعلام صاحب الفن (الطبيب). وطموح المولّدين في توسيع مجال ممارساتهم، دعاهم لصب كل

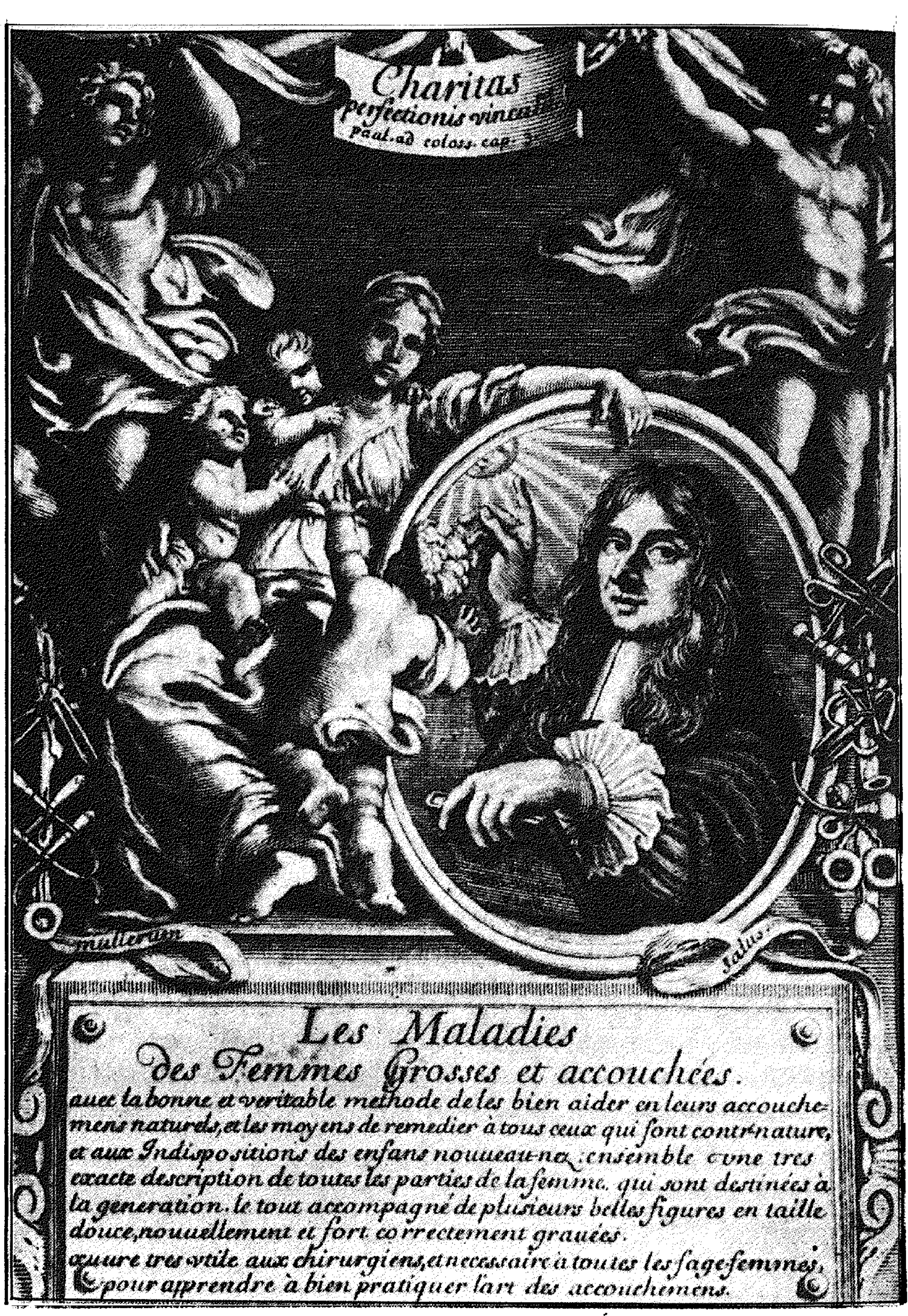


□ صورة السيدة «دو كودري» أول من صنعت نموذج الولادة.

اللوم على الداية وتقديمها كخطر كبير على المجتمع: (انتقاد لممارساتها البربرية، ولدورها المعترف به في تغطية مسائل الاغتصاب وقتل الأطفال).

وهكذا من الملاحظ، حصول تغير طفيف في دور الداية، فبعد أن كان همها الوحيد من قبل تخليص الأم، التخفيف عنها وانتشالها من الحالة السيئة التي تعاني منها، وجدت نفسها من الآن وصاعداً ذات دور (أعطي لها من السلطة) في تخليص الطفل أيضاً.

تختلف المولِّدة عن الداية بأنها صلة الوصل بين السلطات الدينية، الطبية، السياسية وبين الجماعة الريفية، حيث منشؤها، ولقد تلقت العناصر الأساسية للمعرفة التوليدية من مدرب توليد في المدينة أرسلها إليه القس، وهي بذلك في وضعية، تسمح لها بنشر الحد الأدنى من المعلومات الطبية في التوليد وطب الأطفال بين الناس. هي وحدها القادرة على تكييف محتوى المقال الطبي ووضعه قيد الممارسة. إنها وحدها القادرة على اجتذاب السماع لأنها متماثلة مع الآخرين. تتكلم كلاماً بسيطاً ومباشراً في متناول الجميع. وهي بذلك تنجح بنشر «علم قابل للاستخدام» متعلق بالولادات. بينما رجل الطب الآتي من المدينة ما كان لينجح في فرض نفسه، والقابلة الجديدة بحاجة للوقت بالطبع لكي تزيح القديمة: ولقد قاومتها بعض الجماعات أحياناً حتى منتصف القرن التاسع عشر، لكن بدأت الآلاف من القابلات بمتابعة الدروس في التوليد منذ نهاية القرن الماضي، ولقد بدأت بإدخال



Les Maladies
des Femmes Grosses et accouchées.
auec la bonne et veritable methode de les bien aider en leurs accouchemens naturels, et les moyens de remedier à tous ceux qui sont contrenature, et aux Indispositions des enfans nouueau-nez; ensemble vne tres exacte description de toutes les parties de la femme, qui sont destinées à la generation. le tout accompagné de plusieurs belles figures en taille douce, nouuellement et fort correctement grauées.
œuure tres vtile aux chirurgiens, et necessaire à toutes les sagefemmes, pour apprendre à bien pratiquer l'art des accouchemens.

□ كتاب: أمراض النساء الحوامل والمولّدات لمؤلفه: «موريكو». من أوائل الكتب الأوروبية التي تعالج الموضوع.

طريقة جديدة في التصرف، وسلوكاً جديداً، ولو ببطء.

وبمقدار ما تستند في سلطتها على الجسم الطبـي، تحاول أن تمتثل لقواعد وأخلاق رجل الطب. لذلك صار من المنتظر منها الآن أن تتصرف باتزان أكبر وأكثر تجرداً. كذلك فلم يعد لها أن تكون الرفيقة والمشجعة على الصراخ الذي يساعد على الولادة، بل يجب أن تتعلم اعتبار جسد المرأة كغلاف، كوعاء، كنوع من الميكانيك الذي يساعد على نمو وولادة الطفل. إن جسد المرأة في المخاض ليس سوى موضوعاً عيادياً بالنسبة للطبيب.

إن لكل قابلة مزاجاً بالطبع، وهي تتصرف حسب تصورها الشخصي لدورها، لكن كل القابلات صرن يحاولن تحديد حرية المرأة، وصرن وهن الخاضعات لسلطة الطبيب والمولّد، وقد يكون بسبب ذلك، يمارسن سلطة على النساء المولدات، ولقد بدأت المولدة تعي الدور المناط بها في التدرج الطبـي وبالتالي الاجتماعي.

ننتظر من القابلة الآن الدفاع عن الأخلاق العامة، أخلاق الأسرة، والأخلاق الجنسية، الدفاع عن سلوك أخلاقي جديد على المرأة في الريف تماماً: فلقد تحولت القابلة من «مجهضة» أو ساحرة إلى مخبرة عن عمليات الاجهاض، وعن الممارسات السحرية. صار عليها التعريف على السلوك المسيحي السليم.

والتعليم المفروض على القابلة القانونية، يضعها خارج الاطار العام ويدغدغ مشاعرها، إذ هناك محاولة لاقناعها بأن لا علاقة لها اجتماعياً بالنساء اللواتي تولدهن. وهكذا صارت القابلة المقترحة من القس الوسيط بين الشعب وبين المؤسسة الطبية. وهي تلتقط فتات الهيبة التي تحيط بهالة كل ما يمس الطب التوليدي.

ونلاحظ أن النشاط المهني، حلّ محل ذهنية عمل الخير التي كانت في الأساس محور عمل الداية.

مهنة طبية

لقد خلفت القابلة القانونية، صاحبة مهنة التوليد، الداية المتطوعة؛ وهذا ما لم يُقبل بسهولة في المجتمع الريفي، الذي يعتبر أن الولادة كعملية طبيعية، يجب أن لا تخضع لعلاقات المال؛ والأفضل عدم اللجوء إلى القابلة إذا كان ذلك يوجب الدفع. فبينما يتحدث الجسم الطبـي عن مقاضاة الأتعاب والأجور، يبقى الريفيون ضمن إطار تبادل الخدمات والمساعدة. ويزعق الأطباء «أنهم يفضلون حيواناتهم على نساءهم».

إن القطيعة التي تحصل بين القابلة وبين الجماعة، خلال أشهر تعلمها في المدينة، والدور الذي تحمّل به خلال هذه الأشهر، يجعل منها شخصاً مختلفاً. إذ أن الطب دخل المجتمع الريفي بواسطتها. فالقابلة ليست فقط «مولدة»، فمنذ سنوات القرن التاسع عشر الأولى، ساهمت في الحفاظ على الأطفال من الجدري عن طريق التطعيم وقد دُرِّبت القابلات على القيام به في الريف عند اكتشاف التطعيم.

إذن، «الداية» سبقت الجسم الطبـي في الانغراس في الريف. وهكذا صارت الداية حاملة العلم للفن الطبـي، حاملة ملائمه في أرضية لن يلبث الطبيب أن يشغلها بنفسه.

وبتحول الداية إلى قابلة، أصبحت عامل تفكك للجماعة الريفية ووسيلة لدخول الثقافة المدنية. وكانت تزداد فعاليتها مع مساهمتها الفعالة في تحسين الشروط الصحية للولادة، فتحولت بذلك «المجوسية» الأنثى(*) القديمة والمثيرة للارتياب سابقاً، إلى سلاح فعال لضبط الجماعة النسائية.

(*) Mage-femelle.



العمل فريضة

● قال صلى الله عليه وسلم: طلب الحلال فريضة بعد الفريضة.

(حديث شريف)

التجارة والتبادل التجاري بين البندقية والمماليك

د. غادة المقدم عدرة



□ معركة بحرية بين الانجليز والاسبان.

لا بحر في هذا الكون أحرز مجداً في التاريخ مثل البحر المتوسط الذي يبسط مياهه الزرقاء أمام سورية وافريقيا الشمالية ويكسر أمواجه على شواطئها. وقد قيل: «إن على شواطىء البحر سطع نور التمدن وتجلى بأكمل مظاهره. فهذا البحر كان في غابر الأيام محور الحضارة وقاعدتها».

وكان لسكان إيطاليا في شأن التجارة السبق والقدم فبلادهم تقوم على شواطىء البحر المتوسط، وتجاور الشرق، وكانت حكومات جنوى وبيزه والبندقية تقتسم إيطاليا وتجهد في توسيع التجارة وتوفير أسبابها.

ولم تكن الملاحة تتم في مختلف الفصول، لذلك فالسفن كانت تتحاشى السفر في الشتاء خوفاً من انواء البحر، وكانوا يقلعون في الغالب في فصلي الربيع والصيف ليكون رجوعهم في أواخر تشرين الأول، ويبحرون جملة في عدة مراكب متآلفة ومتآزرة يبلغ عددها أحياناً إلى اثني وعشرين مركباً، وكان يواكبها بوارج لرد غارات بعض القراصنة الذين كانوا يخوضون البحر المتوسط ويوسعونه نهباً وسلباً.



أما أهم أصناف البضائع المشحونة من الشواطىء السورية: الحرير السوري والقطن والكتان والزجاج، وكانوا يشحنون من صور وطرابلس السكر. أما تجارة البهار فكانت شبه محصورة بالشواطىء المصرية.

وكان لاكتشاف رأس الرجاء الصالح الأثر الكبير في تغيير معالم الحضارة والمبادلات التجارية في القرن السادس عشر التي كان مركزها الأساسي حوض البحر المتوسط، وهو مركز مزدهر لجميع المبادلات التجارية، فكانت مصر صلة الوصل بين الشرق والغرب ومركزاً عالمياً للتبادل التجاري بين أوروبا وافريقيا وآسيا لتجارة الشرق الأقصى للحصول على التوابل الهندية والحرير إلى جانب المواد المحلية التي كانت تتمتع بها مصر والشام من قطن وسكر وزجاج وبلسم.

هذه التجارة الرائجة تحولت أغلبها إلى ممر رأس الرجاء الصالح إن لم نقل كلها بسبب اكتشافه.

وتحدثنا عن ذلك الوثائق التجارية، فقد كانت وما زالت على درجة كبيرة من الأهمية لمعرفة الحالة التجارية والمبادلات بين الشرق والغرب. وهذه الوثيقة التي بين أيدينا تتحدث عن معاهدة تجارية بين البندقية وآخر سلاطين المماليك قانصوه الغوري في مصر، وهذه الوثيقة موجودة ضمن الوثائق المحفوظة في أرشيف دولة البندقية والتي نشرت في التاريخ المدني والسياسي لتجارة البنادقة:

(Storia civile politica delcommercio de Venezian)

هذه الوثائق تكشف العلاقات والمبادلات بين الشرق وإيطاليا (البندقية) في السنين الأولى لاكتشاف ممر رأس الرجاء الصالح، وقد كتبت بأمر من السلطان قانصوه الغوري مؤرخة: القاهرة، ٥ حزيران سنة ١٥١٢م.

الوثيقة

نقاط موضوعة بأمر من السلطان لسفير دولة البندقية دومنيك ترفيسان (Domenique trevisan) مع جواب على كل بند.

أولاً: درجت العادة بعد وصول السفن للاسكندرية وقبل ابتدائها البيع أو الشراء عن طريق التبادل أن يختار القنصل أربع تجار من البندقية لتحديد ثمن التوابل من تاجر السلطان وكذلك توابل المحلات الخاصة ويلحق بهؤلاء مفوض السلطان، حيث تكون مهمتهم تحديد سعر البيع والشراء واجتماعهم لا ينفض إلا بعد اتفاقهم على سعر معين. حالياً لم يعد يطبق هذا الأسلوب وخصوصاً منذ قدوم تنجري باردي (Tangri Bardi)[1].

الجواب: السبب مما يعمل به إذ تأتي عن تحديد ٢١٠ قفة (Coufes) توابل التي نشتريها سنوياً. واليوم فإن ثمن هذه التوابل حدد بـ ٨٠ دوقة لكل قفة، والأساليب السابقة أصبحت عقيمة كذلك بالنسبة للمواد الأخرى من الطيب والتوابل، وعليه فإن لكل فريق الحق في تحديد السعر الذي يناسبه[2].

ثانياً: في كل سنة كانت تبحر ثلاثة سفن من البندقية مباشرة إلى الشاطىء البربري (Barberie)[3] وتصل محملة بالبضائع إلى الاسكندرية ثم تفرغها، لتعود من جديد إلى الشاطىء البربري وهناك تعاود تفريغ وتحميل البضائع إلى الاسكندرية ومن ثم إلى البندقية.

هذه التجارة كانت رابحة جداً لتاجر الملك ولتجار البندقية والافريقيين، لماذا لم يعد يحصل هذا منذ وصول باردي؟

بضائع السفن الايطالية لشواطىء مصر البندق ــ الزبيب ــ زيت ــ نحاس ــ رصاص ــ شراشف ــ جلد ــ فرو ــ مخمل ــ ذهب ــ فضة.	**بضائع تشحن من مصر** توابل ــ حرير ــ قطن ــ كتان ــ زجاج.



□ صرّاف.

الجواب: يجاوب السفير أن الجمهورية ترغب في إرسال نفس العدد من السفن، ولكن السلام هو عنصر مهم لامكانية الابحار وها هو ملك إسبانية في حرب مفتوحة مع دويلات البرابرة مما يوقف الابحار. وعندما نستطيع الابحار سوف نعمل كالسابق.

ثالثاً: كانت سفن البندقية محملة بالبندق والزبيب وكانت العادة إعطاء قسم منه إلى تاجر الملك والناظر والوزّان ولكل من له حق في ذلك، كل هذا تغير منذ وصول باردي.

الجواب: بالنسبة لتوزيع هذه الفاكهة فقد عملنا بحكمة على إلغائها لأنه لا منفعة للسلطان في ذلك والقسم الأكبر من هذه الفاكهة يباع بسعر بخس في البزار.

لذا فإن فائدة بلدنا هي: الاهتمام بمصالح تجارنا الذين يصدرون الفاكهة ليحققوا الربح في ذلك.

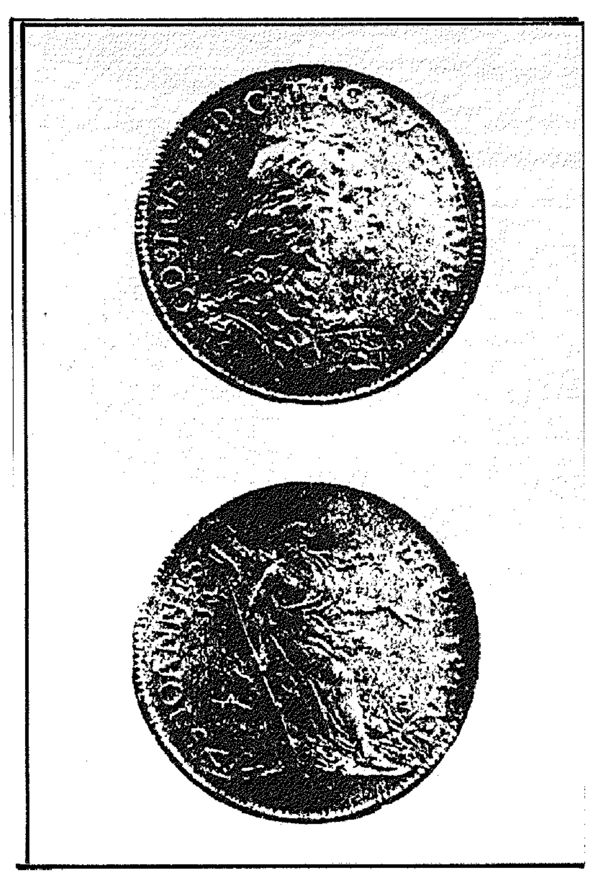
رابعاً: كل سنة يشتري تجار البندقية من تاجر الملك ٢١٠ قفة توابل نقداً ويدفعون له المبلغ نقداً، حالياً هذه العادة توقفت منذ وصول باردي.

الجواب: إذا وافق السلطان أن يسلم هذه الكمية بسعر ٨٠ دوقة للواحدة كما اتفق عليه فسنأخذها وإلا فليتصرف كما يشاء لأننا نتمسك ببنود الاتفاقية وبسعرها في حال رفع السعر أو جعله متدنياً. أما فيما تبقى نترك للسلطان حرية العمل بما يريده ويجده مناسباً.

خامساً: كان تجار البندقية يجلبون خلال السنة كل أنواع البضائع: زيت، نحاس، رصاص، شراشف، جلود، فرو، مخمل.

ومن اليوم الأول لوصولهم وحتى نهاية يوم الموضة ــ المعرض ــ كانوا لا يتوقفون عن البيع والشراء بالتبادل أو بالنقد، وهذه السفن لا تصل إلا مرة أو مرتين في السنة، ولا تبيع ولا تشتري ولا تحدد الأسعار إلا في نهاية المعرض خلال يوم وليلة فقط(٤).

الجواب: في الواقع كانت السفن تصل هنا خلال السنة كلها محملة بمختلف البضائع. وهذا



□ عملات البندقية القديمة.

يرجع إلى الحرية المطلقة للتجارة سواء للبيع أو الشراء.

وبفضل هذه التسهيلات كان يمكن التحضير مسبقاً لكمية كبيرة من الحمولة. حالياً، الحكومة تريد بيع البضائع التي تصل بالسعر المحدد للموضة السابقة، وما على السلطان إلا السماح للبضائع التي تصل أن تباع بالسعر الجاري أي السعر الذي يريده الله في أي وقت من السنة، وهكذا نستطيع أن نتبادل كما كنا في السابق.

سادساً: كان يصل إلى الاسكندرية خمسة سفن دون حساب الاثنتين اللتين ترحان إلى الشاطىء البربري، وسفينة أخرى إضافية، وعند انتهاء البيع والشراء كان يبقى في الاسكندرية كمية كبيرة من البضائع، زيت ــ نحاس ــ رصاص ــ شراشف، وكان مقدار ثمنها ما يزيد على ٣٠٠ الف دوقة، وهكذا يحصل بيع وشراء كل السنة.

أما الآن فلم نر سوى ثلاث سفن.

الجواب: يصل القليل من السفن لأنها لا تستطيع تحميل سوى أسطولين ونصف أو ثلاثة. إضافة إلى ذلك، إن التوابل تباع بسعر أغلى من السابق فمثلاً (Gingembre) الذي يساوي ١٨ دوقة يباع حالياً بـ ٤٥ دوقة، وأسعار التوابل الأخرى ارتفعت بنفس النسبة أي أن حمولة ثلاثة أساطيل تساوي ٦ أضعاف الحمولة القديمة، أما فيما يتعلق بالسفينة الاضافية فقد شرحت السبب في المادة السابقة(٥).

سابعاً: بعد ذهاب الأسطول كان يبقى التجار في الاسكندرية وكان دائماً يبقى على الأقل خمسة عشر تاجراً مهما يبيعون ويشترون على مدار السنة، وحالياً لا يبقى سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص ليسوا سوى سعاة، ولا يوجد عندهم إلا القليل من البضائع.

الجواب: في الحقيقة كان التجار يحبون السكن في الاسكندرية، حيث يستطيعون ممارسة أعمالهم بكل حرية، وبالمقابل فإنهم يجدون اليوم صعوبة ومضايقة، وهذا ما ذكر في المادة السابقة، وعندما يجد التجار أنه من الأفضل بقاؤهم فإن عدد التجار يزداد عن السابق.

ثامناً: كان التجار يبيعون ويشترون ويجهزون محلاتهم بالتوابل منتظرين وصول السفن الاضافية وكانوا يشترون حتى ٦٠٠ بالة توابل أو على الأقل ٥٠٠ بالة دون حساب ما يشترونه من التجار العاديين(٦). وعند وصول السفن الاضافية كانوا يدفعون ثمن البضائع المشتراة ويصدرونها ويتابعون البيع والشراء إلى نهاية الموضة. حالياً لا يشترون سوى ٢٠٠ بالة من التوابل وهذا راجع لقلة البضائع التي يجلبونها ولجمود الأعمال.

الجواب: نكرر بأن حرية التجارة هي التي تنعش الأعمال وإذا كنا نبحث عن الخير للسلطان عليه أن يعطي التجار الطريق التي توسع مجالات أعمالهم وربحهم.

تاسعاً: كان يصل كل سنة أربعة آلاف من الواح النحاس المربعة أو على الأقل ٣٠٠٠ دون حساب الأنواع الأخرى من النحاس. وفي السنة الماضية لم يأت سوى ٨٠٠ لوح من النحاس ولا شيء غيره.

الجواب: إن الجواب على هذا يلخص أن ما منع تصدير الكمية السابقة، هو وضع اليد

عليها وبيعها بطريقة مختلفة عما يرغب به التجار المالكون وأعطوا بالمقابل أنواع من التوابل تختلف عما اتفق عليه. وعندما يتأكد التجار من أنهم سيعاملون معاملة حسنة ويستطيعون البيع كما يشاؤون يستوردون أكثر من السابق، خصوصاً وإن ألمانيا حالياً في حالة سلام ولا يمنع شيء من الابحار بحرية.

عاشراً: في كل سنة كان يشحن ثلاثة أو أربعة آلاف طن من الزيت، بل وأكثر من ذلك.

الجواب: نجاوب على ذلك أن الزيت مثل أية مادة زراعية فهناك سنوات نحصد الكثير وأخرى القليل القليل. والأهم هو ازدهار التجارة وحرية البيع كما نريد، سواء من حيث السعر أو من حيث الصناعة، وإذا لم نحافظ على هذه الحرية، لا شيء ينتهي نحو الأفضل.

حادي عشر: كان يصل في كل سنة مع السفن الاضافية أكثر من مئة ألف دوقة، أما اليوم فلم يصل خلال السنتين الماضيتين سوى ٨٠ ألف.

الجواب: كانت في الماضي تأتي هذه الكمية من المال لشراء التوابل خلال السنة بسعر متفق عليه مسبقاً، أما الآن ومع عدم تحديد السعر في الـ (الموضة ــ Muda) اللاحق لا أحد يخاطر بإرسال ماله أو بضاعته وهو يعرف بأنه لا يستطيع التصرف مباشرة. بالاضافة إلى أن البهارات التي تشكل العنصر الرئيسي في تجارتنا والتي تجلب الكثيرين لا يمكن شراؤها هنا بسعرها المرتفع.

ثاني عشر: عند وصول الأسطول كان البحارة ــ كما جرت العادة ــ يعرضوا مختلف أنواع البضائع: شراشف، عسل... إلخ.

وتبلغ مجموع الأموال التي يجمعونها من البيع ما يوازي خمسين ألف دوقة، وبهذا المال يشترون في نهاية الموضة توابل تاجر السلطان والتجار الآخرين. وتترك لهم كامل الحرية في هذا المجال، أما حالياً فلا يشترون شيئاً عند انتهاء الموضة وهذا ما يضر بمصالحنا.

الجواب: لقد سوينا البحارة بالآخرين، وفي الواقع يشتري العديد منهم، ليس فقط لحسابهم، بل لحساب تجار آخرين وهذا ما يسيء إلى الذين يشترون في أيام الموضة، ومن غير المنطق أن يسود الغبن في التجارة، بل يجب أن يسود القانون والقاعدة تطبق على الجميع[٧].

ثالث عشر: في الماضي كانت العادة أن تكون هناك أربع سفن في البحر أي في ساحل قبرص وسوريا لمطاردة القراصنة، والآن يلجأ القراصنة لهذه الجزيرة (أي جزيرة قبرص) واليوم هي ملجأ آمناً لهذه السفن، حيث يتعاون معهم السكان، ويعطوهم مؤنهم من الطعام والماء، وهم الذين يرشدونهم إلى السفن المسلمة التي تبحر من سوريا إلى مصر.

وهؤلاء القراصنة لا يخافون الوصول إلى مصب النيل الذي يمر بدمياط وينهبون كل ما يجدونه في طريقهم.

الجواب: إن ما يتعلق بجزيرة قبرص فإنه لا ينقصها شيئاً حسب الاتفاقية، ولكننا منذ سنتين لم نستطع المحافظة والسهر على تطبيق الأمن فهذا عائد للحالة السيئة التي تسود الجمهورية[٨]، ولسوف نكتب إلى عملائنا في جزيرة قبرص، عندئذ لا يكون لدى السلطان أية شكوى من هذه الناحية.

رابع عشر: كل الذهب والفضة التي تصل الاسكندرية سواء سبائك أو عملة لا تباع إلا (لمفوض الملك) ووفق السعر الجاري، وإذا أراد بائع المعدن أن يقبض الثمن، في هذه الحالة عليه أن يتفق مع التجار على إيصال العملة إلى (تاجر الملك) دون حسم أي مبلغ، وإذا حدث وباع أي تاجر من العملة لأي شخص غير تاجر الملك فإن هذه الأموال ستصادر.

الجواب: إذا كان علينا أن نترك الحرية في أي شيء، فعلينا أن نسهل تبادل الذهب والفضة ولا يجب أن نجبر أحداً على بيعه، ومن الأفضل تركهم أن يختاروا الوقت المناسب لبيعه. وفي هذا المجال يجب أن تعطى العناية لضبط الموازين التي توزن بها الفضة وكذلك يجب إعطاء الأفضلية للذين يحضرون الفضة دون مزج. والسبب هو أن الفضة أصبحت أكثر ندرة مما مضى، وهذا عائد للحروب التي منعت أعمال المناجم من ناحية، ومن ناحية ثانية لأن أغلبيتهم تذهب إلى البرتغال عن طريق التبادل بالتوابل، وعليه فإنه لا يجب أن يعرف أي



□ معمل سكر.

مواطن من البندقية أن السلطان اقترح هذا العرض.

(انتهى النص)

من هنا نرى أن هذه الوثائق الموقعة والتي كتبت باسم قانصوه الغوري تبرهن:

١ ــ على الانخفاض المتزايد في التجارة بين البندقية والبحر الأحمر والاسكندرية منذ سنة ١٥١٢.

٢ ــ احتكار السلطان لتجارة التوابل والسبائك (الفضة والذهب) التي كان يقوم بتجارتها لحسابه الخاص.

٣ ــ إقامة معرض عام سنوي يسمى المودة للتبضع بالأصناف الضرورية لتجارتهم وكانوا يشترونها إما نقداً أو على سبيل المبادلة.

٤ ــ عند انتهاء المعرض كانت تؤلف لجنة لتوحيد وتحديد الأسعار.

٥ ــ بقاء تجار في الاسكندرية من معرض لآخر وعلى الأخص من البندقية للبيع والشراء خلال العام.

٦ ــ محاولة السلطان عند تدني السعر أن يجبر التجار في نفس الوقت على شراء كمية معينة من البضائع ولهذا فإننا نخلص إلى النتيجة التالية:

ــ ازدياد المضاربة مع ليشبونة.

ــ ارتفاع الأسعار أيام المعرض ومحاولة إجبار التجار على الشراء بسعر العرض خلال أيام السنة.

ــ امتعاض تجار البندقية من هذه المعاملة وتفضيلهم الذهاب إلى ليشبونة لتأمين البضائع للمرافىء الايطالية واليونانية مع إرسال عدد قليل من السفن للحفاظ على العلاقات الشكلية.

لهذا كله تحولت هذه التجارة المهمة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى ممر رأس الرجاء الصالح. ●

الهوامش

(١) اسم احد المسؤولين عن هذه التجارة بين البندقية ومندوب السلطان.
(٢) من المؤكد أن المندوبين الخمسة كانوا يتفقون على تحديد سعر ٢١٠ قفة التي تخص السلطان، اما ما تبقى فإن للتجار الحرية في تحديد أسعار سلعهم وفقاً للعرض والطلب.
(٣) من شواطىء المغرب.
(٤) من المؤكد أن المعرض كان يعني وصول البواخر للاسكندرية، حيث تبدأ المبادلات وكانت في الحقيقة مثل معرض كبير.
(٥) انخفض سعر التوابل بسبب تحولها إلى ممر راس الرجاء الصالح.
(٦) الـ ٦٠٠ بالة كانت تشترى فقط من تاجر السلطان.
(٧) بالظاهر بعد الموضة كانت أسعار التوابل تنخفض وهذا ما يعطي منفعة كبرى للتجار الذين ينتظرون انتهاء المعرض للشراء.
(٨) وجدت البندقية في مواجهة كافة الدول الأوروبية تقريباً حسب معاهدة (Cambray) وقد ضعفت للمجهود الكبير التي أجبرت على عمله.

المـــراجع

(١) الأعلام: الزركلي.
(٢) مجلة المشـرق، السنـة التـاسعـة (العـدد ٣٠، سنة ١٩٠٦)، ص ٥٨.
(٣) معجم المؤلفين: عمر كحالة. ج ٨ ص ١٢٧.
(٤) تاريخ سلاطين آل عثمان: محمد فريد بك. ص ٧٥، ط ٢، ١٨٩٦.
(٥) كـارل بـروكلمن: تـاريـخ الشعـوب الاسـلاميـة. ص ٦٢ ــ ٦٣.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري.
(٧) ابن الأثير: تاريخ ابن الأثير.



● الحرب الفيتنامية جعلت من الولايات المتحدة دولة يحتقرها العالم.

(مارتن لوثر كنج)

● فقد جون جريمشو ويلكنسون، النباتي الأميركي، بصره في الثالثة والعشرين ولكنه تعلم أن يميز بين الأزهار بمسها بطرف لسانه وكان في وسعه أن يسمي على الفور خمسة آلاف صنف منها.

المجلة العلمية الأميركية

● زار رفائيل المصور الايطالي العظيم صديقا له فلم يجده، فلم يترك له بطاقة ولكنه رسم «دائرة» على ورقة وخرج، فعلم صديقه بالزيارة لأن أصدقاء رفائيل كانوا يعلمون أنه دون غيره قادر على رسم دائرة تامة باليد ودون الاستعانة ببيركار.

روبرت ماكلولن

● ليس من حق أحد أن يرسل طائرة للتجسس.. إذا كانت الطائرة ستقع!

(ريتشارد نيكسون)

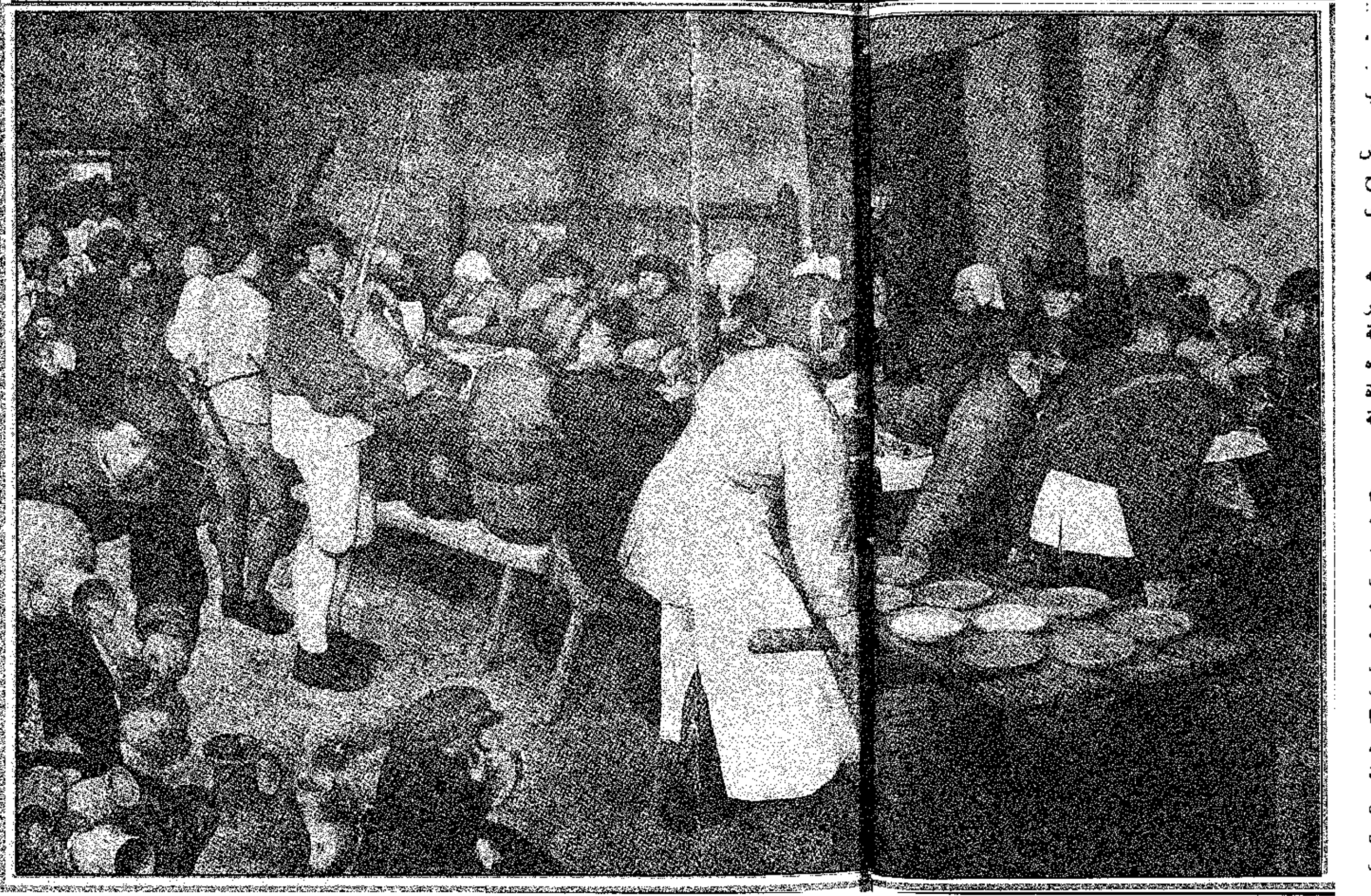
● ان اميركا تشبه شخصاً يحمل بين ذراعيه كمية كبيرة من البيض، تمنعه من الحركة، خوفا من سقوطها!

(شواين لاي)

متحف فيينا

في قصر آل هابسبورغ

د. رياض العالي



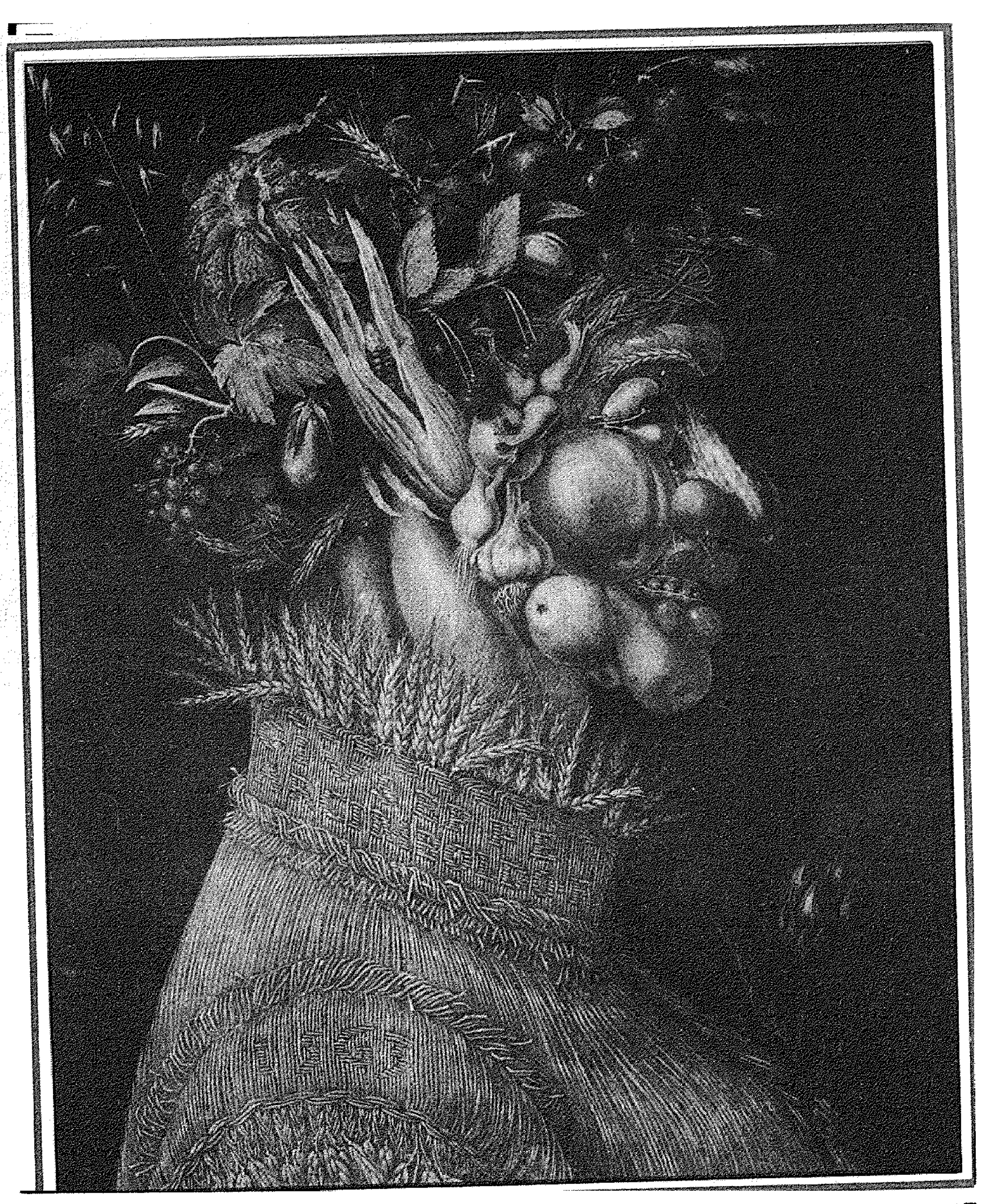
يضم المتحف روائع الفن العالمي: ثمانية آلاف لوحة. ثلاثة آلاف منحوتة، في قصر ذي طراز قديم، فخم عظيم. انت فيه، في جو عابق بملامح عالم كان قلب أوروبا القديمة!

كيف يمكن أن يروي تاريخ كونستيستوريش ميوزوم فيينا؟ يبدأ هذا التاريخ قبل افتتاح البناء، منذ خمسة قرون، مع اللوحات الأولى التي حصل عليها بيت آل هابسبورغ.

في مطالع القرن السادس عشر، لم يكن فيه أي أثر فني هام، في عهد مكسيميليان الأول، أمر الفنانون أن يصنعوا لوحات تمجد العائلة الامبراطورية. وقد وضع «دورر» كل جهده ليرسم مكسيميليان. ولئن لم تكن اللوحة شديدة العناية بالألوان، فقد حفلت بإدراك عميق لنفسية الامبراطور.

كان مكسيميليان يرفض أن يجلس طويلاً أمام الرسام. لذلك استطاع «دورر» أن يلتقط بالقلم، وبسرعة، ملامح الامبراطور. ومنها رسم اللوحة.

واحتلت اللوحات جدار قصر الارشيدوق فريدريك الثاني. وراح الأمراء يتهادون اللوحات ويعلقونها في قصورهم. وهكذا وجدت لوحات كراناش لوجون، وهوبلان. ثم جمع الارشيدوق لوحاته في مقره في انيسبروك. وعلقت لوحات رودولف الثاني في القصر الملكي في براغ. أما الرسامون فكانوا دورر، رافاييل، فيرونيز، تيتيان. غير أن عدة لوحات كانت ضحية الاضطرابات وحروب السنوات الثلاثين. فعوض عنها فرديناند الثالث بشراء عدد كبير من اللوحات، ومعظمها من الفن الذي نسب إلى فيينا، وفن الباروك.

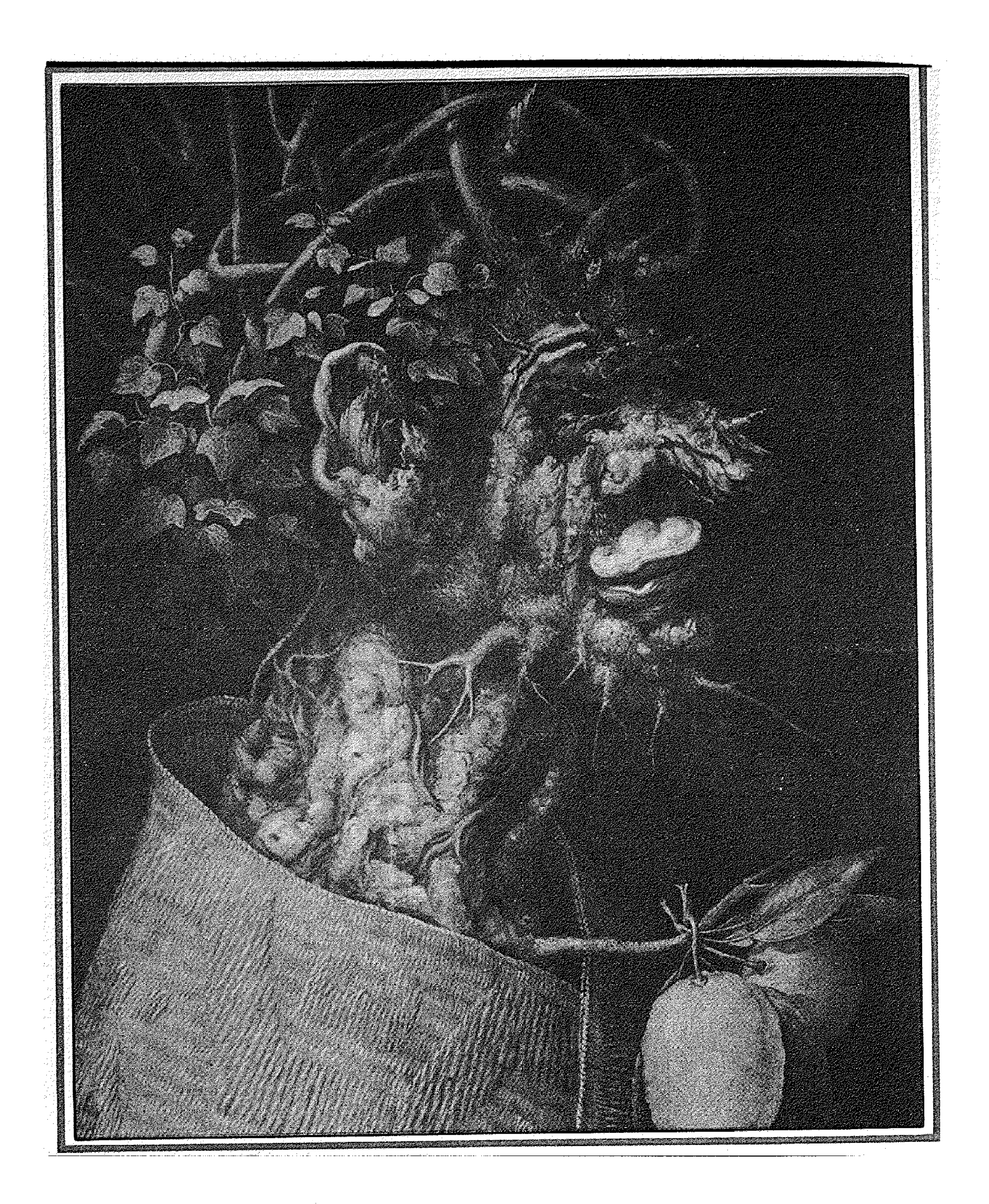


□ لوحتان لأركامبولدو الذي اعتبره دالي اول سوريالي. اسم الأولى «الصيف»، واسم الثانية «الشتاء».

وقد تعددت في هذه الفترة قاعات القصور المخصصة للوحات، والمعارض التي كان الأمراء والقادة يتباهون بها.

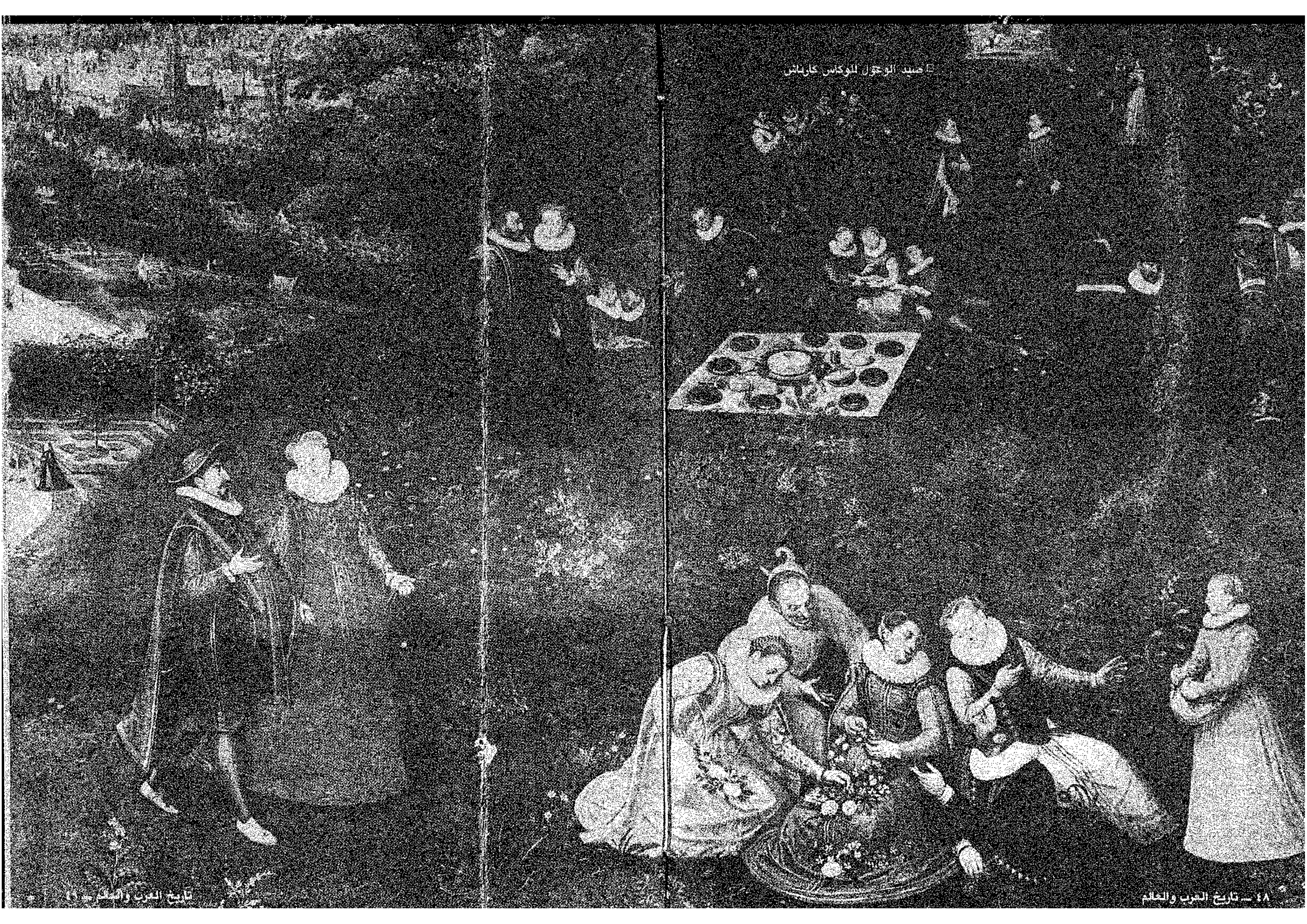
على أن أبرز جامع لوحات كان ليوبولد غيوم (١٦١٤ ــ ١٦٦٢)، ومن أبـرز مقتنيـاتـه: الكاردينال البرغاتي، لفان آيك، ولوحات ايتيس، وروبنس، وفان دايك، وتيتيان (مادونا الغجر).

واستعـان ليوبـولد بالرسـام دافيد تينيـي



ليختار له اللوحات. وقد ورث كل لوحاته حفيده ليوبولد الأول (١٦٤٠ ــ ١٧٠٥). وكان قد ورث أملاك فرديناند الثالث. كما ورث متحف براغ، ومتحف فيينـا، ومجمـوعـة آل هـابسبـورغ، وآل مديسي.

وبسبب القرابة مع العائلة المالكة في إسبانيا، فقد حصل على لوحات تنتمي إلى المدرسة الفنية الاسبانية، وأبرزها لوحة فيلاسكيز الذي رسم فيليب الرابع وعائلته. وقد تزوج ليوبـولد من مـارغريت ــ تيريز. فورث منهما ابنهما شارل



□ صيد الوعول للوكاس كارناس



□ شاب، للورانز لوتو.

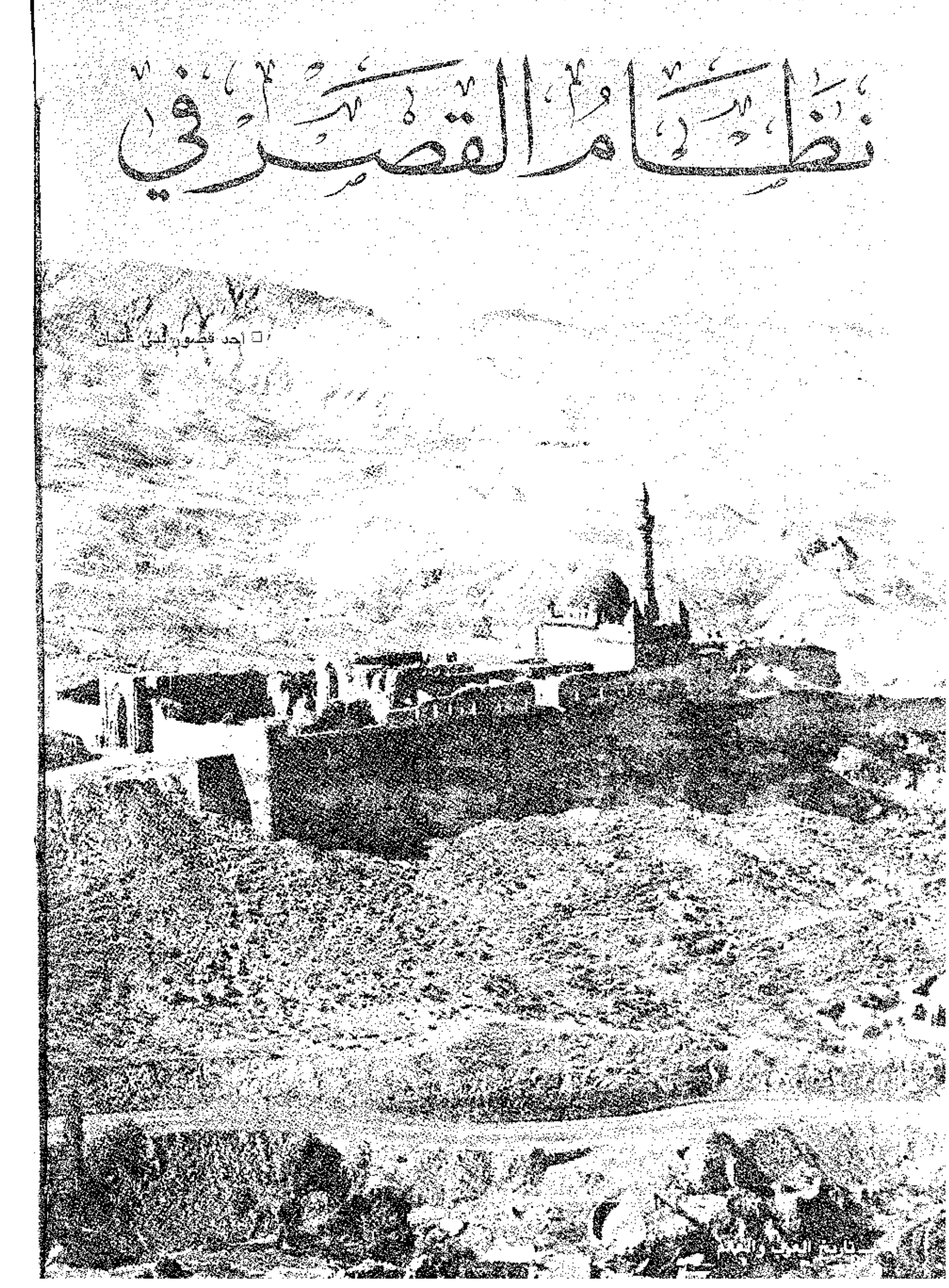
السادس (١٦٨٥ ــ ١٧٤٠) كل تلك الكنوز. ونقلها جميعاً إلى قصره. وكان يسميها «رفيقته النبيلة».

وكانت الأسرة بعد ذلك العهد تجمع من كنوز الفن ما تطيق، حتى كادت قصورها تغص باللوحات والمنحوتات.

أما الذي وهب الكنوز هذه، وقد حول قصر آل هابسبورغ إلى معرض، فهو الامبراطور جوزيف الثاني. ومنذ ذلك الوقت أصبح القصر متحفاً تمتلكه الدولة. وقد أمر فرنسوا جوزيف الأول بتوسيع المكان عام ١٨٥٧. ●

□ حمل الصليب لجيروم بوش، وهو اول من ادخل المسوخ في لوحاته الدينية.

نظام القصر في الامبراطورية العثمانية



□ أحد قصور بني عثمان

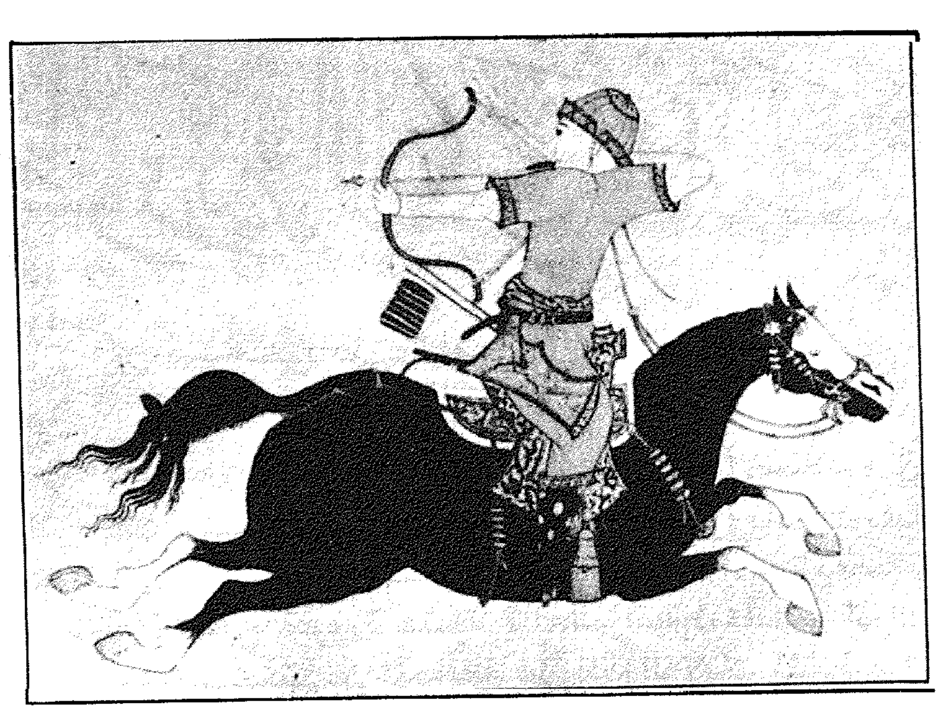
د. محمود علي عامر

دراسة القصر في الامبراطورية العثمانية، وارثة الخلافة الإسلامية في العظمة والاتساع التي مدت سيطرتها في قارات ثلاث، آسيا، أوروبا، وافريقيا وعاشت أكثر من ستة قرون حكمها (٣٦) ستة وثلاثون سلطاناً ادعى بعضهم الخلافة وتلقب بأمير المؤمنين، أصبح ضرورة حتمية. تلك الدراسة تمكننا من إدراك مكوناتها وفهم جوهر إدارتها التي تمكنت من المحافظة على تلك الولايات المتناثرة في القارات الثلاث ولقرون عدة فغدا بذلك زوالها موضع تساؤل المؤرخين.

إن ما تركته الامبراطورية العثمانية من آثار — سلبية كانت أم إيجابية — جدير بالاهتمام والدراسة الحقة. فالأراشيف التركية حافلة بالوثائق التي تبرز ساحتها بالرغم من الأخطاء السياسية التي ارتكبت من قبل ولاة الأمر فيها، ولكن هذا لا يعني أن قسماً من تلك الأخطاء غير مبالغ فيه أو أن المطلعين على ما خلفته تلك الامبراطورية من وثائق وقرائن لم يفهم من قبلهم بشكله الصحيح.

وجدير بالذكر أن دراسة أحوال الامبراطورية العثمانية لا تفي بالغرض ما لم يتم دراسة القصر ومعرفة بنيته منذ تكوينه، فالحكام الذين تملكوا زمام امور الامبراطورية خلال ستة قرون خلت، من شجرة واحدة فغدا توارثهم للحكم أباً عن جد، وهو أمر مهم وموضع تساؤل من قبل الكثيرين. بمعنى أن سلاطين بني عثمان تربوا في بيت واحد، وضمن نسق اجتماعي معين، وفوق هذا تلقوا علومهم من مصدر واحد. إذاً هذا يلزم بالضرورة دراسة ذلك البيت الذي تربوا وعاشوا فيه. لأن ذلك يسهل علينا فهم السلطان، سواء أكان صالحاً أم فاسداً فالكل يعلم أن الامبراطورية العثمانية مرت بأطوار معينة منها طور القوة، طور الضعف وطور الانهيار والزوال، ما دام الأمر كذلك يا ترى! ما هي الدوافع التي دفعت السلاطين أو فرضت عليهم الخضوع لتلك الأطوار والمراحل. طالما البيت واحد والتربية الاجتماعية والعادات والتقاليد لجميعهم واحدة؟ إن الإجابة على تلك التساؤلات لن تتم إلا بدراسة القصر الذي احتواهم منذ نشوئه، لأن قصرهم هذا رافقهم فرافقوه وأوجدهم فثبتوا دعائمه على مر ستة قرون، إلا أن هذا القصر غدا في النصف الثاني من حكم سلاطين بني عثمان وبالاً عليهم بعدما أخلّ غالبيتهم بأسسه واستغلوا ما ورثه وورثوه من مجد لصالحهم الشخصي، فادعى البعض منهم أن تلك الامبراطورية المترامية الأطراف هي ملكهم الخاص لهم حق التصرف بها كل حسب أهوائه ورغباته، فاندفع الغلاة من الطبقة الحاكمة لاتباع أساليب استعمارية بمحاولتهم تتريك الولايات العربية، بعد أن ثبتت تلك الولايات إسلاميتهم ومنحتهم حق وراثة

■ الدكتور محمود علي عامر مدرس تاريخ العرب الحديث والمعاصر في كلية الآداب — قسم التاريخ جامعة دمشق



□ فارس تركي، في متحف «الطوب قابـي».

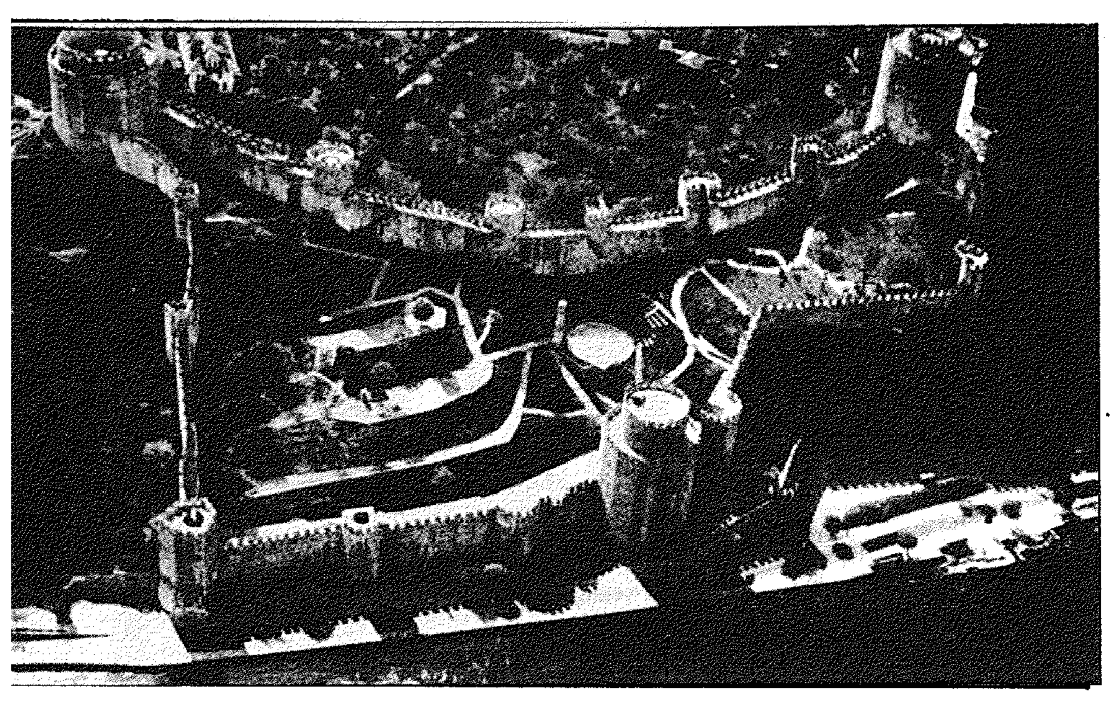
الخلافة الإسلامية مدعين المحافظة على تلك الورثة.

ولسنا نريد الدخول في الجانب السياسي، فهذا ما تداولته الأقلام وسودت به صفحات طوال. ولكن المقصود دراسة القصر العثماني وفهم بنيته وتكوينه، بعد أن غدا السلطان العثماني ألعوبة بيد الدول الأوروبية التي حاول التقلد بها والسير على نهجها. لذا فإن بعض المؤرخين الأتراك يرد ذلك إلى فترة التنظيمات الإصلاحية بدأ بالسلطان محمود الثاني الذي تغرب فكراً وعملاً، على حين جاء ولده عبدالمجيد ونفذ ما عجز والده عن تنفيذه، إلا أنه كان نصفي فمن الناحية التنظيمية كان غربياً أما من الناحية الفكرية فكان شرقياً، وبالرغم من هذا فانه لم يستطع إيقاف عملية الانهيار.

وإن دراستي هذه استمدت من الوثائق والمصادر التركية، إضافة إلى مشاهدات حية لا تزال قائمة حتى الآن تؤكد على عظمة تلك الامبراطورية الغابرة والمجسدة فيما خلفته من قصور كانت فيما مضى ذات سلطة وسلطان، والقصر العثماني الموحد التنظيم تتبعته بالدراسة منذ نشأته من خلال المدن التي وجد بها إلى أن استقر في استانبول، حيث اتخذ فيها قصراً واحداً حتى فترة التنظيمات، فاضطر السلطان النصفي إلى ترك قصر أبائه وأجداده (قصر الطوب قابـي) وأسس لنفسه قصراً جديداً أسماه (دولمه بغجة) أي الحديقة المملوءة، مدللاً بذلك على رفضه أسلوب سلفه، وان حكمه لن يكون من قصر الطوب قابـي، القصر المحكوم والمشحون بالظلم واللهو، إلا أن هذا وان بدأ للوهلة الأولى أنه انطلاقة جديدة إلا أن الفكرة في ذهن المواطن التركي ما أن تبلورت حتى أدرك عقم الفكرة وزالت الصورة الحلوة من فكره نهائياً، على حين أن الانتقال إلى القصر الجديد لم يحدث أي تبديل في الولايات بل على العكس من ذلك ازدادت الهوة بين الولايات ومركز الادارة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المواطنين الأتراك شعروا بأن القصر الجديد هو نقطة الارتكاز في عملية تجريدهم من مواطنيتهم وسلخهم عن إسلاميتهم.

ففي تلك المرحلة بدأ القصر العثماني يتغرب، وغدا ملجأ للقناصل الأوروبية التي بدأت تحيك مؤامراتها على الأتراك وولاياتهم من بين جدرانه. ودراسة قصر (دولمة بغجة) إضافة إلى قصر يلدز (أي قصر النجوم) وكشف ما جرى بين أروقتها ضد الدولة العثمانية وممتلكاتها جديرة بالاهتمام والسؤال المطروح: القصر العثماني، وكيف ومتى بدأ، ومن هم القائمون عليه.

الأتراك منذ البداية التزموا بالنظام ومجدوه وعُرف عنهم أنهم عسكر، فهذا ناتج عن نظام

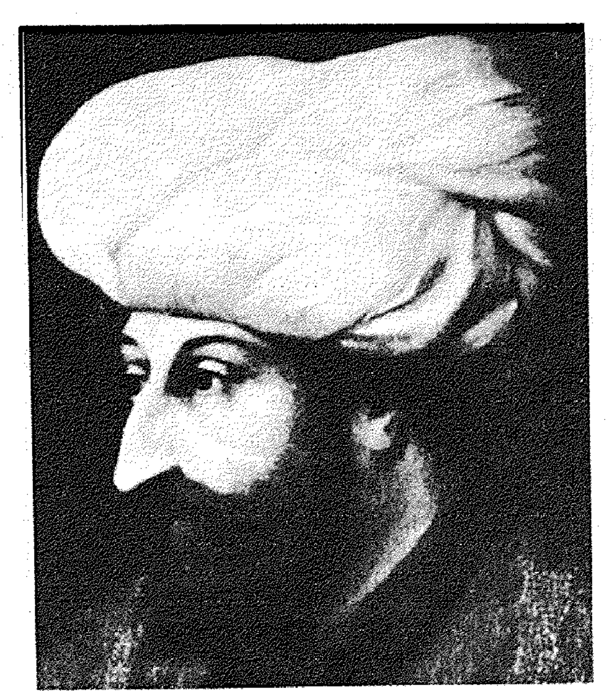


□ قصر شيّد خلال ثلاثة أشهر للسلطان محمد الثاني على ضفاف البوسفور.

وضوابط وان اتهمت بالقساوة والصرامة، والتي هي بالحقيقة هي من أهم أسس النظام العسكري الذي كان الأتراك بأمسّ الحاجة إليه، والتزامهم به مكنهم من تكوين امبراطورية ترامت أطرافها وتعدت أصقاعها وأخافت أصحاب الثورة الصناعية على طول مراحل تاريخية معينة، حتى تصورها أعداؤها أنها لن تزول. إلا أن انحراف الحكام عن النظام المتبع دفعهم بصورة غير مباشرة إلى تحقيق ما يصبوا إليه المستفيدين.

فالحاكم العثماني ما مازاح أهل بيته طالما هو يرتدي اللباس النظامي ولم يستقبل خيرة قادته وأقرب المقربين إليه إلا في اللباس الرسمي، هذا أضفى عليه الرهبة والجدية وإذا كنا نستطيع أن نسمي هذا عرفاً أو عادة منذ أن كانوا في أواسط آسيا وبخاصة على ثغورها الشمالية الغربية حيث اعتاد المؤرخون على القول إن الامبراطورية العثمانية في نشأتها الأولى كانت واحدة من إمارات الغزو، بالرغم من أن الغالبية العظمى من المؤرخين يشاطرهم الشك حول الانبثاقة الأولى لها وجرياً على العادة المتبعة من كل أمة وامبراطورية ناشئة في إيجاد اسطورة غامضة حول تكوينها حرصاً منها لتبرير وجودها.

وكما نعلم فإن الأتراك ينحدرون من عدة قبائل تعود غالبيتها إلى أصول سلجوقية وإن القبيلة التركية التي استقرت شرقي آسيا الصغرى (على بحيرة وان) بقيادة أرطغرل، هي التي استطاعت أن تكون الامبراطورية العثمانية واحتوت فيما بعد القبائل التركمانية وظل الأتراك يحكمون تلك القبائل حتى زوال امبراطوريتهم فمنذ اللحظة الأولى لقيامها اتخذت الامبراطورية مدينة بورصة مركزاً رئيسياً لها واستمر الأمر حتى وفاة الغازي عثمان بك الذي عمل على عدم إدخال نظام البيلرية إلى امبراطوريته الناشئة وعندما تولى أورخان بك مقاليد السلطة بعد والده تزوج بيلون خاتون والتي انتقاها من مدينة أذانيق فنقل زواجه هذا مركز إدارته إلى اذنيق[1]. وجرت العادة على أن الحاكم العثماني إذا استقر في مكان لفترة معينة كان يتطلب هذا منه بناء جامع ومدرسة ودكاكين يقف عائداتها لريع المدرسة وهذا ما فعله أورخان بك. وسواء أكان المركز في بورصة أو في اذنيق فإن السراي كالمعتاد ظل دون أي تبديل ومع هذا فإننا لم نعثر على وثائق تلقي الضوء على النظام المتبع فيه بالرغم من وجود بعض التشكيلات المطبقة ولكن على نطاق ضيق ومعلوماتنا عن نظام القصر العثماني آنذاك جداً نادرة إلا أنه من خلال كتابات أولياء شلبي القائلة من أن السلطان العثماني كان يتخذ مقر سلطته داخل القلعة واستمر سلاطين بني عثمان على اتخاذ القلاع



□ السلطان محمد، الملقب «بمحمد الصياد».

مركزاً لادارتهم حتى تولى محمد الفاتح السلطنة مع انهم استمروا يقيمون القصور في أماكن إدارتهم وحتى أثناء تواجدهم الصيفي كما فعل أورخان حينما نقل مركز إدارته إلى اذنيق اسما[٢]. فالدولة العثمانية التي تابعت فتوحاتها في بلاد روملي كان المركز الرئيسي لادارتها في بورصة ولكن سيطرتهم على مدينة ادرنة أفقد بورصة مركزها ونقلت الادارة كاملة إلى أدرنة[٣] ونقل العثمانين السريع الجهاز الاداري من مدينة إلى مدينة كان يقصد منه متابعة الفتوحات ليظلوا على مقربة من جبهة القتال والجدير بالذكر هنا أن العثمانيين لم يملكوا جهازاً إدارياً كما تتضمنها تلك الكلمة من مدلولات واقتصر جهازهم على الناحية العسكرية، فمدينة أدرنة بعد أن أصبحت المركز الرئيسي للادارة العثمانية إلا أنهم لم يتركوا بورصة بصورة نهائية، والوثائق التاريخية تذكر أن مدينة ادرنة غدت مقراً دائماً للدولة الناشئة في عهد الأمير سليمان في مطلع القرن الخامس عشر وظل القصر القديم الموجود في ادرنة مقر الادارة حتى الانتهاء من القصر الجديد واستمر من سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م حتى سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م ولا يزال القصر قائماً حتى الآن في مكان يقال له ميدان الحور، وفيما بعد أمر السلطان سليم الأول ببناء جامع باسمه[٤]. وحينما قرر العثمانيون اتخاذ ادرنة مقراً لدولتهم الفتية تطلب منهم هذا إقامة ثكنات للجند وأول ثكنة انشئت كانت لعناصر (القابي قول) أي عبيد الباب وانشئت أبنية للحريم خاصة بهم، وأبنية للمؤسسات الأخرى وكان المطلوب من الادارة العثمانية آنذاك إقامة دار حرب ودور لتربية العناصر الوافدة وأماكن خاصة بتدريس أولادهم الفقه وتعليم القرآن الكريم وبنفس الوقت ظلت بورصة ملجأ الحكام العثمانيين للترويح عن النفس وخاصة في عهد موسى الشلبي ومحمد شلبي اللذان اهتما بالناحية العلمية أكثر وكان محمد شلبي يتردد إلى بورصة بين الفينة والأخرى، ولكن حينما تولى مراد الثاني السلطنة ٨٥١هـ /١٤٤٧م قطع كل صلاته ببورصة وانصرف إلى إنشاء قصر خاص به في مركز سلطنته وذلك على ضفاف نهر تونجا، وخلفه ابنه محمد الثاني الملقب بالفاتح ١٤٤٧ ــ ١٤٨١م الذي أمر بإنشاء قصر جديد وجامع بثلاث شرفات تطل على قصر والده[٥].

إلا أن استلام الفاتح أمور السلطنة وما تحلى به من صفات خلقية وعسكرية وهذا يعود إلى التربية والنظام الذي شهده في طفولته، وبكل أسف إلى الآن لم يعثر على الوثائق الخاصة بتربية أولاد السلاطين، مكنته من فتح القسطنطينية وذلك سنة ١٤٥٣م والتي سميت فيما بعد استنبول أي إسلام بول ومعناها المسلمين كثر، فنقل مركز السلطنة العثمانية إليها بصورة دائمة واستمر الأمر هكذا حتى سنة ١٩٢٣م عهد الجمهورية. وبالرغم من اتخاذ الفاتح لمدينة استانبول العاصمة الدائمة، إلا أنه لم يقطع صلاته بمدينة ادرنة وأجرى تطهير ولديه فيها، وفي سنة ١٤٥٧م تعرضت ادرنة لحريق كبير سبب لها خراباً عظيماً وخاصة القصر[٦]، فأمر الفاتح بإعادة بناء القصر المحترق من جديد وبالرغم من استقرار الفاتح في استانبول إلا أنه، لم يهمل أدرنة، انطلاقاً من كونها مدفن أجداده باستثناء عثمان وأورخان اللذين دفنا في مدينة بورصة، واستمر سلاطين بني عثمان بمدينة ادرنة واتخذت مقراً صيفياً بدلاً من بورصة، مما دفعهم للمحافظة على

السرايا الجديدة وأشرفوا بأنفسهم على النظام المتبع لديهم كذلك أبقوا على العناصر الأعجمية المكلفة بحراسته والقيام على الخدمة المطلوبة وكان السرايا يضم قسماً خاصاً بالحريم وهذا القسم حوى عدة أجنحة حيث جرت العادة على أن زوجات السلطان يقمن في جناح خاص، ولم يعرف عن السلطان العثماني المتزوج أكثر من زوجة واحدة تقيم في جناح الزوجة الأولى كما أنها لا تقيم أيضاً في جناح والدة السلطان وفي أحيان كثيرة أما أن يخصص لها جناح خاص أو أنها تقيم في جناح الوصيفات المخصصات للزوجة الأولى وقلما حدث مثل هذا لأن زوجة السلطان لا تعلم عن زوجها السلطان إلا القليل، كما أن تعدد الزوجات لم يتبع من قبل السلاطين العثمانيين الأوائل، كذلك ضمت الغرفة الخاصة وهي مخصصة للسلطان عند جلوسه بها لا يحق إلى أقرب المقربين الدخول إليه إلا بإذن الغلمان المكلفة بذلك والغرفة المخصصة للخرقة السعادة، وغرف المؤونة، ومهجع للضيوف أما باب السعادة فهو المكان المخصص لجلوس السلطان ويتدارس مع قواده وكبار دولته ووفود الدول الأجنبية أمور دولته. بعد أن تركت ادرنة شهد القصر العثماني مرحلة جديدة ونشطة فاتسعت دوائره وتسربت إليه أقسام أخرى شكلت قسماً خاصاً سمي القسم السلطاني أو ما يسمى اندرون، ولقد تفنن السلاطين في إضفاء الهيبة عليه. وخصص للسلطان أيام للصيد وكان السلطان محمد مولعاً بالصيد حتى لقب بمحمد الصياد(٧).

وكما أسلفنا سابقاً فالوثائق التي بين يدينا لا تعطي صورة كاملة عن سر القصر العثماني إلا أنها تتعرض إلى بعض صفاته وأقسامه الداخلية والخارجية.

فالقصر بني ضمن مساحة تقدر بـ (٥٠٠٠م) وبلغ ارتفاع السور (٢٠ ذراع)(٨)، وفي عهد سليمان القانوني ادخلت تحسينات عليه وأمر بتربية غلمان ضمن مواصفات جسدية عرفت بالغلمان الخاصة وبلغ عدد الغلمان القائمين على الخدمة (٦٠٠٠ غلام) وخصصت لهم إدارة خاصة وديوان خانة كبيرة وعناصر منهم سكنت في غرف وفصلت العناصر المكلفة بخدمة السلطان



□ انكشارية الامبراطورية العثمانية.

عن بقية العناصر الأخرى وقد ربيت الغلمان على أصول الضيافة والخدمة وعندما يعجب السلطان بعدد من الغلمان يأمر بنقلهم إلى السرايا الجديدة في استانبول ومن القصور المشهورة في ادرنة قصر هنكار الحديقة وقد بني حديثاً وتذكر الوثائق والمصادر بأن مراد الأول أشرف على بنائه وزينه بفيلة رائعة الجمال وأجرى السلطان سليمان القانوني بعض التعديلات وقد أحيطت به غابة من الصنوبر على امتداد خانة وفي الطرف الجنوبي زينت أطرافه بالأرز والصنوبر، ومن هنا خصص مدخل السلاطين، وقرب الباب وجد قصر العدالة بجانبه فيلا وحديقة، وفي الساحة الشمالية بني اصطبل للخيول والقصر الجديد مشابه للقصر القديم إلا أن سوره لم يكن سميكاً لأنه مجاور لنهر تونجا، وقد احتوى في داخله دائرة لحريم السلاطين وهي مؤلفة من سبعة أدوار ويضمنها خزان يسمى خزان زواج السلطان وبقربه انشئت عدة أحواض يبدل الماء فيها مرتين وفي عهد السلطان أحمد الأول ومراد الرابع بنيت غرف قبية الشكل في ساحة القصر الجديد لاقت أهمية فائقة من السلطان محمد الصياد بسبب استقراره الطويل هناك(٩). وهكذا احتلت مدينة ادرنة أهمية كبرى من السلاطين وفاقت غيرها من المدن التركية بكثرة قصورها وحدائقها

ونلاحظ أن بني عثمان منذ قيام دولتهم الفتية وحتى اتخاذ استانبول عاصمة لهم أن القصر في تلك المراحل خضع لمراحل التطور البطيء في تكونه، وان المعلومات التي استقيناها مما خلفه أولياء شلبـي غير كافية.

قصر استانبول القديم

ما أن فتح الفاتح مدينة استانبول حتى عمل على تثبيت الأسس التركية فيها، فبعد أن أزال الكنائس وحولها جوامع عثر في وسط استانبول على معبد قديم وفوقه قصر في حالة خراب تام فأمر الفاتح بتجديده إلا أن السلطان الفاتح رفض الجلوس به لأنه رأى من غير المناسب لسلطان مثله الاستقرار في قصر قديم جديد(١٠). فأمر ببناء قصر جديد استغرق العمل به مدة سنتين، أما السرايا القديم فقد خصص لعائلات السلاطين وأحضروا عناصر للخدمة فيه للحريم آغا وأطلق عليه اسم آغا الحريم وآغا البوابين وآغا البلطجية وآغا القصر وكان يعطي آغا السرايا يومياً ٥ ــ ٦ أقجة وآغا الخدمة ٥ أقجات في حينه أعطى آغا البوابين مع عناصره ١١ أقجة(١١) أما آغا الحريم فلم تذكر الوثائق ما كان يتقاضاه إلا أنه كان ذو حظوة وقد بلغ عدد خدمة القصر القديم بحدود (٤٠٠) عنصر وفي هذا القصر لم تستخدم الغلمان نهائياً فالعرف العثماني لم يسمح بإدخال العناصر الشابة إلى مسكن النساء إلا بعد إجراء عملية الخصي لهم.

أما بالنسبة لوالدات السلاطين فقد خصص لهن جناح خاص في القصر باستثناء والدة السلطان الحاكم فكانت تقيم في القصر الذي يقيم ولدها فيه، وهو بالنسبة للعثمانيين قانوناً، والسلطان العثماني كان يتردد بالذهاب إلى القصر القديم في المناسبات وأيام الأعياد إلا أنه في أيام الأعياد لا يذهب إلا في اليوم الثالث لقبول التهاني من النساء ومن ثم يقدم إليهن الهدايا(١٢).

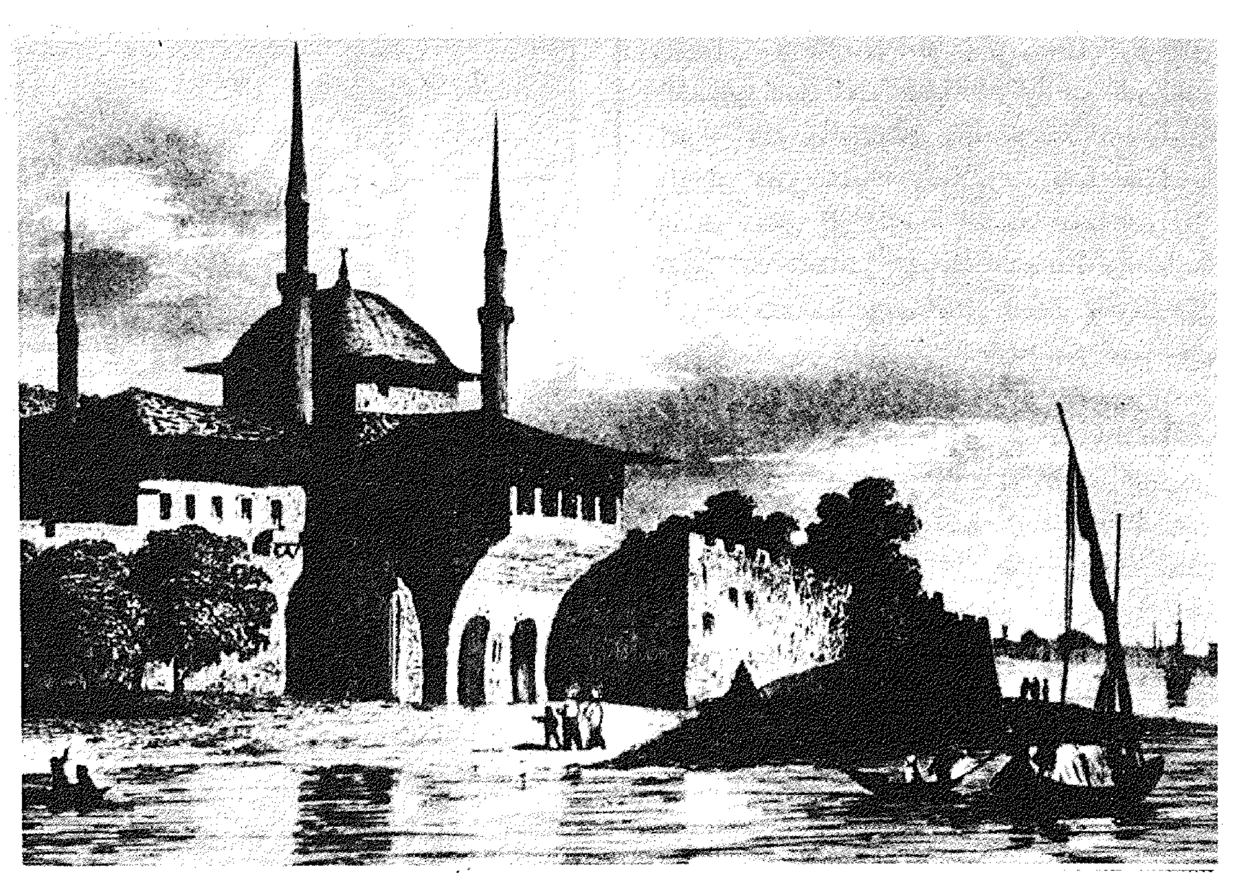
القصر المخصص للنساء محاط بكتيبة من الانكشارية أما العناصر العاملة في القصر القديم فالجيدة منها إزاء إخلاصهم بالعمل ينقلون إلى القصر الجديد وكان هذا يعني ترقيتهم وكان من أهم العاملين في القصر القديم البلطجية البوابين مغسلي الملابس الطباخات إضافة إلى عدد من الخدمة وكان النقل يتم إلى أوجاق الانكشارية لأن ذلك بمثابة قانون إلا أنه لا يشمل البوابين(١٣).

وساحة القصر هذا كانت جداً واسعة لذلك بنى السلطان سليمان القانوني جامعه في ساحة القصر القديم وبعد وفاته خصص إلى عائلات السلاطين كما ذكرنا سابقاً.

قصر أو سرايا الصليب

يقع هذا القصر في منطقة مرتفعة من مدينة استانبول يقال لها منطقة البيلربـي ولا تزال حتى الآن محافظة على اسمها، وكان في بادىء الأمر حديقة إلا أن السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ ــ ١٦١٧)، أحب تلك المنطقة كثيراً فأمر ببناء قصر الصليب وقسمه إلى قسمين: قسم للغلمان الداخلية والقسم الآخر لغلمان الباب، وقد أمر بتحويل الحديقة المجاورة له والتي تسمى حديقة الصليب إلى أبنية تابعة له فبنى في الجهة الشمالية غرفة كبيرة وغرفة سفرة مخصصة للغلمان كما بنى في الجهة الغربية الغرف الخاصة(١٤). والقسم الجنوبي خصص للخزينة والمؤن، أما في الجهة الشرقية فقد قسم إلى قسمين: قسم للطيور والقسم الآخر لغلمان الباب مع قاووش خاص بهم، وظل القصر يحظى بالعناية إلى أن تولى مراد الرابع السلطنة، حيث ترك نهائياً ونقلت عناصره إلى قصر الطوب قابـي وبعضها وضع تحت أمرة آغا الانكشارية.

بقي علينا أن نلقي ضوءاً على العناصر التي أحضرت إلى تلك القصور والخدمة التي أدتها، ثم أين تربت التربية المطلوبة ومن منهم حظي بشرف الخدمة السلطانية، وما هي الصفات الواجب توفرها في الغلام لكي تنال تلك الحظوة؟ ان العناصر التي نالت حظوة العمل في قصر السلطان تلقت تربيتها في قصر أدرنة وبورصة وقصر ميدان الخيل، قبل انتقالها إلى قصر الطوب القابـي ذلك القصر الذي شهد مجد الدولة العثمانية، يوم كانت في أوج قوتها وحينما كان أعظم ولاتها وأرفعهم شأن يقبل العتبة الهماتونية(١٥). ففي القصر الجديد وزعت



□ قصر «طوب قابـي».

العلوفات (الوظائف)، واستقبل السفراء واقيمت المراسم، وشهد خلع ونصب السلاطين، إضافة إلى أنها قضت حياتها مسجونة لغضب سلطاني، فمات في الظلام وأما لرضاء سلطاني فمات بين الجدران. في قصر الطوب القابـي تبارت الغلمان في تقديم خدماتها، ولكن في أي قسم من أقسامه لم تكن الأقسام على مستوى واحد من الأهمية، ففي جناح اندرون جرت حوادث لا يزال القسم الأكبر منها مجهولاً. أما الوثائق والمصادر التي دونت مجمل حوادثه لم يتم العثور عليها، وماتت مـع أهل العلم والمعـرفـة من أوليـاء الشـأن والسلطان.

ـــ القصر الجديد قسم إلى ثلاثة أقسـام: القسم الداخلي والقسم الخارجي وقسم الحريم، ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة تشكيلات وقوانين وأنظمة خاصة به، وحتى اصطلاحات تختلف عن تسميات الأقسام الأخرى، ويمكننا القول أن السلاطين اعتباراً من منتصف القرن الخامس عشر حتى أوائل القـرن الثامن عشر كـانوا يستقـرون في مجمع النبـلاء والعلمـاء المخصص في قيـادة الجيش، وكـذلك خصص جناح آخر في قيادة الجيش للعناصر المسلمـة والقادمة من الولايات العربية لتربيتهم على النمط التركي والثقافـة التركيـة، فـي حـين خصص للعناصر المنحدرة من أصل سلجوقي جناح آخر مجاور لجناح السلطان، والسلطان العثماني كان بنفسه يشرف على تربيتهم بدنياً وثقافياً وعسكرياً وسعياً لاسناد المناصب الادارية في الولايـات التابعة للامبراطورية لهم[١٦].

ـــ ومن أهم الطبقات التي نالت حظوة في الامبراطورية العثمانية هي طبقة العلماء ورجال الدين وطبقة عبيد الباب، وقد أفرد للعلماء دائرة خاصة بهم تشرف على أمورهم الخاصة والعامة، وأصبـح أفراد تلك الطبقـة يتحكمون بـأمور الامبراطورية إلى أن تولى السلطان عبدالحميد الثاني السلطنة، الذي ربط الأمور الدينية به وشيـخ الاسلام الذي أفتى بجنـون السلطان عبدالعزيز منحه الجرأة لنزع تلك السلطة منه ومن المؤسسات التي انشئت ولعبت دوراً بارزاً في تاريخ الامبراطورية نظام الدفشرمة[١٧]، وقد



□ رسم للسلطانة، زوجة السلطان(القرن السابع عشر).

دربت تلك العناصر على النظام التركي وربيت تربية تركية والعناصر المتفوقة أوكلت إليها مناصب إدارية هامة في الدولة، كما ان قسماً منها ارسل إلى الولايات،ففي بادىء الأمر أفردت لها تكنات خاصة بها وسجلات ولا يزال القسم الأكبر من تلك السجلات موجود في دور الثائق التركية، ولدى التدقيق في تلك السجلات يلاحظ الباحث دقة وقوة وصرامة النظام والتدريب المطبق عليها آنذاك، كما أنه يمكن استخلاص نسبة أعمارهم ومناطقهم والأماكن التي نقلوا إليها بعد انتهاء مرحلة التدريب والاعداد. وعناصر الدفشرمة كانت تؤخذ إلى القصور العثمانية في كل من ادرنة وبورصة، وفي تلك القصور كانت تعلم اللغة التركية مع تدريسهم القرآن الكريم، وتستمر تلك المرحلة فترة طويلة إلى أن يفتي شيخ الإسلام بتدريبها عسكرياً وبذلك تنتقل إلى المرحلة الثانية، ومما أدى إلى تفوق تلك العناصر المعاملة الشديدة والصارمة التي عوملت بها، ومهما كان الخطأ بسيطاً فإن مرتكبه يتعرض إلى أقصى العقوبة حتى ولو أودت بحياته، كذلك فإن المشرفين على تطبيق النظام لا يحق لهم التظاهر بالرحمة والشفقة، أما العناصر المتفوقة فإنها تحظى برضا السلطان واستحسانه فيبقيها وينقلها إلى القصر الجديد، وأصحاب الأجسام القوية منهم كانت تكلف بحراسة السلطان ومرافقته ليل نهار، ومن أهم الميزات والصفات التي تنال إعجاب السلطان العثماني، الحركة والرشاقة والقدرة على استخدام السيف والمزراق، إلا أن هذا النظام أبطل مع أوائل القرن الثامن عشر وحل مكانه نظام الانكشارية، ومن المفيد القول أن العناصر الانكشارية لم تكن كلها عناصر أجنبية، بل تسربت إليها عناصر محلية خاصة بعد الغاء الدفشرمة حتى في الخدمة داخل القصر، وبدخول العناصر المحلية بدأت أخبار القصر العثماني تتسرب إلى عامة الأهالي، ومن هنا بدأ القصر يدخل مرحلة الانهيار والتفسح وغدا السلطان يسيَّر من قبل حريمه، كما انه انصرف إلى نظم الشعر والموسيقى وحل الموسيقار والأديب محل القائد العسكري، وأغدقت على الشعراء والأدباء أموال الخزانة، مما دفع العناصر صاحبة الشأن إلى قبول الرشاوى وبيع المناصب في ولايات الدولة، ومن هنا يلاحظ أن قوة الدولة العثمانية تلازمت بقوة القصر وترابطه.

غلمان القصر العثماني

إن أي نظام يلد فجأة يزول فجأة وهذا ما حدث بالنسبة لتطبيق نظام الدفشرمة، السلطان بايزيد لكي لا يقع في تراجع أكثر في هزيمة أنقرا التي واجه بها تيمورلنك، أمر بإحضار العناصر الشابة الأعجمية والتي تتراوح أعمارها بين ٨ ــ ٢٠ سنة وأنشىء لهم مؤسسة خاصة بهم(١٨).

هذه العناصر التي أحضرت للحرب والقتال والتي ولدت مؤسستها فجأة، تطورت فيما بعد وانحرفت عن المبدأ التي وجدت من أجله لتصبح عناصر تقوم على خدمة السلطان وحريمه، ضمن سور مهمتها طبخ الطعام والغسل وحمل العمامة إلى ما هناك من أعمال، وهذا يدفعنا إلى إلقاء الضوء أكثر عليها[١٩]. العناصر المرشحة للخدمة داخل القصر والتي سميت حسب المصادر والوثائق التركية باسم الغلمان الداخلية، فالقانون العثماني عامل تلك العناصر درجة درجة ومن خلال مواهبها واللياقة البدنية، وقسم منها ارتقى ونال مراتب مهمة في تاريخ الامبراطورية، وأولى الدرجات التي أخذت بعين الاعتبار القوة واللياقة البدنية ثم رمي السهم والمزراق واللعب بالكرة الخشبية وعصا الصولجان وركوب الخيل، ولم يصفق السلطان إلا لمن تتوفر فيه القوة والحركة والمقدرة على الصبر وتحمل أشد أنواع الصعاب، والشخص الذي يصفق له السلطان يؤخذ إلى القصر الجديد (إلى قصر السلطان). وهناك امتحان آخر للعناصر يجري في ساحة القصر وفي الغرف والفائز ينقل إلى الغرف المخصصة له وحسب المهنة والعمل الذي فاز به، فعناصر الرجولة تقوم بمرافقة السلطان وحراسته، أما العناصر التي نالت إعجاب السلطان وتتوفر فيها مهنة مثل غسل الملابس، عزف الموسيقى، حمل العمامة وتنظيفها وغيرها من الأعمال التي يحتاجها السلطان وتلازم السلطان نفسه. وقد خصص لهم غرف للمنامة وقاووش للطعام يكفيهم وأطلق عليهم عبيدالسلطان، وخصص في كل غرفة ينامون بها دفتر يسجل فيه اسم كل عنصر ومهنته ومعاشه مع بيان وصفي يوماً بيوم، وكانت تلك العناصر تمنح في الشهر ثلاث وجبات إضافية والبسة داخلية وخارجية وحذاء، ومنح المشرف عليها لقب آغا، وان احتياجاتهم ومطاليبهم لا تنفذ إلا بإذن السلطان باعتبارهم تابعين له مباشرة، حتى ان السلطان في أوقات فراغه يتفقدهم ويتعرف بنفسه على لوازمهم وأحياناً يسامرهم ويلاطفهم، إلا أنه لم يتساهل نهائياً في شدة انضباطهم والمحافظة على التربية التي تربوا عليها. وقلما استخدمت عناصر الدفشرمة في ضبط الشعب الذي كان يحدث بين فترة وأخرى في مدينة استانبول أو سواها باستثناء عناصر قصر إبراهيم باشا، وعناصر الدفشرمة بعد احضارها إلى مراكز الدولة المخصصة لها تؤخذ إلى الديوان الابتدائي الهمايوني، ومن ثم تعرض للسلطان واحد واحد على شكل رتل، ثم تصبح بعهدة آغا الباب. وحسب الأوقات والمناسبات التي يحددها السلطان، ترسل عناصر إلى قصر ادرنة وبورصة وقصر غلطة[٢٠]، وبعد تدريبها وتربيتها تخضع إلى مرحلة نهائية من التدريب في قصر ميدان الخيل أو قصر إبراهيم باشا، والباقي يرسل إلى آغا الانكشارية الذي يقدم تقريراً إلى السلطان عن جاهزيتها وصلاحيتها للخدمة[٢١]. والعناصر قبل إرسالها إلى القصور المذكورة أعلاه تحمل أرقاماً بأسمائها ومكان قدومها، وعند وصولها إلى المكان المخصص لها تخضع إلى معاينة آغا القصر وشيخ القصر العامرة، وإلى عالم اللياقة حيث يسجل صفات الغلام وسماته وأكثر ما يركز عليه الخطوط في جبهته والعلامات الفارقة الموجودة به إضافة إلى المعلومات التي يقدمها الغلام نفسه، ومدى تجربته وخبرته، والأعمال التي مارسها في بلده وبعدها يعين في المكان المطلوب ويربى على أساسه وأولى الكلمات التي تلقن إليه، الاستشهاد في سبيل الامبراطورية، ثم تطهر العناصر المسيحية منها والغلام لكي يرشح للخدمة في القصر يشترط التناسب في جسمه وقدميه، وكانت العناصر القادمة من بوشناق وبوقور هي أكثر العناصر تفضيلاً للخدمة في ضبط أعمال الشغب، أما العناصر القادمة من مناطق أخرى فتؤخذ إلى قصر اسكندر شلبي، وقصر اسكندر شلبي تؤخذ العناصر إليه التي لا تتوفر فيها الصفات المذكورة أعلاه، بحيث تربى وتدرب وتنضم إلى كتيبة عبيدالباب. وتذكر المصادر أن العناصر الملازمة للسلطان كان عددها يتراوح ٤٠ ــ ٥٠ شخص بالنسبة لعناصر الدفشرمة المتواجدة في القصر القديم تحت امرة آغا الانكشارية[٢٢]. وظل القصر يقوم بتدريب العناصر وتربيتهم حتى انحلاله، ولم يكن هناك فترة محددة لتأهيلهم، وأحياناً تستغرق المدة سنتين أو ثلاث سنوات، وهو أمر ملتزم بمدى

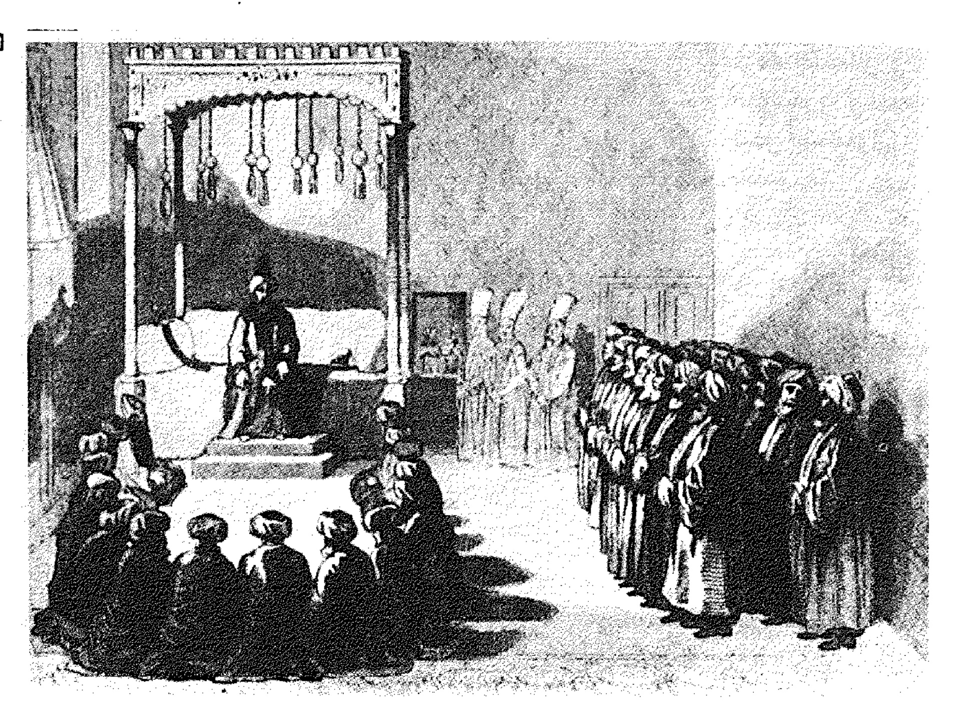
الحاجة، وهو أمر لا يتدخل السلطان نفسه به بل مرتبط بآغا القصر الجديد (أي قصر الطوب قابي)، وكانت العناصر في تدريبها تنقل من مرحلة إلى مرحلة، وفي مرحلة النضوج والبلوغ وهي المرحلة الأخيرة يطلق عليهم الخروج أو التخريج الكبير وبعدها يفرزون إلى القصور وحسب الحاجة، والعناصر الجيدة تخصص إلى القصر الجديد، كما أن قسماً منها ينضم إلى كتيبة الخيالة من فرقة عبيدالباب[٢٣]. أما بالنسبة للدروس التي يتلقونها في القتال، القرآن الكريم، التاريخ العثماني إلى جانب ممارسة الأعمال المهنية اللازمة تبعاً لحاجة السلطان، فالعناصر المتفوقة تنقل إلى قصر غلطة (والأفضل هنا بالنسبة لهذا القصر استخدام، غلطة سرايا) وقد يتوصل البعض من المتفوقين إلى مرتبة معلم وفي أواخر القرن السابع عشر بدأ قصر أدرنة يفقد أهميته، وقلصت الدولة من عملية جمع الدفشرمة وغدا قصر استنبول هو القصر الوحيد الذي يجهز له عناصر للخدمة، وأخيراً بدأت الجواري تقوم بمعظم خدمات القصر الداخلية وخاصة في الجناح المسمى (اندرون) وبالنسبة للعناصر التي تزيد عن حاجة القصور تنقل إلى كتيبة عبيدالباب الخيالة التي تعود تبعاً لحاجة الولايات أو ما يراه آغا الانكشارية مناسباً. ولكن الوثائق التي بين يدينا لم تذكر بأن عناصر أبدت مهارة في فن القتال كلفت في خدمة السلطان باستثناء العناصر المتفوقة بركوب الخيل وقذف الكرة الخشبية[٢٤].

قصر غلطة (غلطة سراي)

أسس غلطة سراي في عهد بايزيد الثاني، وتذكر المصادر أن تأسسه نتيجة وصية من أحد الأولياء فبنى القصر وبجانبه جامع مع عدة دكاكين وخانين يتسعان إلى (٢٠٠) شخص وثلاث قاووشات وفي كل قاووش حمام ومطبخ، ودائرة مخصصة للضباط وأمكنة خاصة بآغا القصر مع خمسة عناصر اطلق عليهم رأس الزاوية[٢٥]. والعاملون في غلطة سراي أدنى مرتبة من العاملين في القصر الجديد، بالرغم من المنزلة الدينية التي تمتع بها غلطة سراي (وكلطة سراي) كذلك عين وكيل للغرف القاووشات وطيور باشي وحمام باشي ومحاسب عام وعين كذلك أربع غلمان للخدمة الداخلية وأربع غلمان ممرضين وخمسة معلمين، وكاتب وطبيب وغسال وسقا وساقي الشراب، وحمال اللحم كل ذلك عدا البوابين والبلطجين وموظفي المؤون والخباز ونائب للخباز وعدة مستخدمين[٢٦]. والعاملون في ذاك القصر إضافة إلى اهتمام السلطان بهم، فإن تلك الاجراءات كانت تنفيذاً للقانون التركي المتضمن نصوصاً ثابتة بشأن تشكيلات القصور وأصول النظام بها، وبالنسبة للمدرسين الخمسة في غلطة سراي كانوا يتقاضون معاشاً شهرياً بمقدار ١٢ أقجة للمعلم الواحد[٢٧]. والمعلم الذي يحصل على ترفيع ينقل إلى القصر الجديد ويعين بوظيفة معلم قاووش وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر وبسبب مشكلات القصر أصدر السلطان أحمد الثالث أمراً يقضي بإزالة تشكيلات قصر ادرنة وقصر إبراهيم باشا وأمر بضمهم إلى العناصر الانكشارية العاملة خارج القصر الجديد على حين نقلت عناصر غلطة سراي إلى القصر الجديد، وحول القصر إلى مدرسة وأعطى مدرسيه درجات امتياز عن غيرها من المدارس الأخرى[٢٨]. وفي الأيام الأخيرة من سلطنة أحمد الثالث وبسبب الضغوط الدينية اضطر إلى إعادة تشكيلات غلطة سراي فزاد هذا من نفوذه والحق بالسلاحدار وربط بنظارة الأغوية البيضاء، وكان السلاطين يقومون بزيارة غلطة سراي كل سنتين مرة تبريكاً ويختارون ١٢ غلام، وحينما تولى أمور السلطنة محمود الأول أمر بإنشاء مكتبة ضخمة مع سبيلين وقبل وفاته بشهور أقام حفلاً كبيراً ووزعت على الناس الحلوى والشراب، وقد قدم السلطان محمود الأول إلى القصر لرؤية المكتبة والتي لا تزال حتى الآن تحمل اسمه.

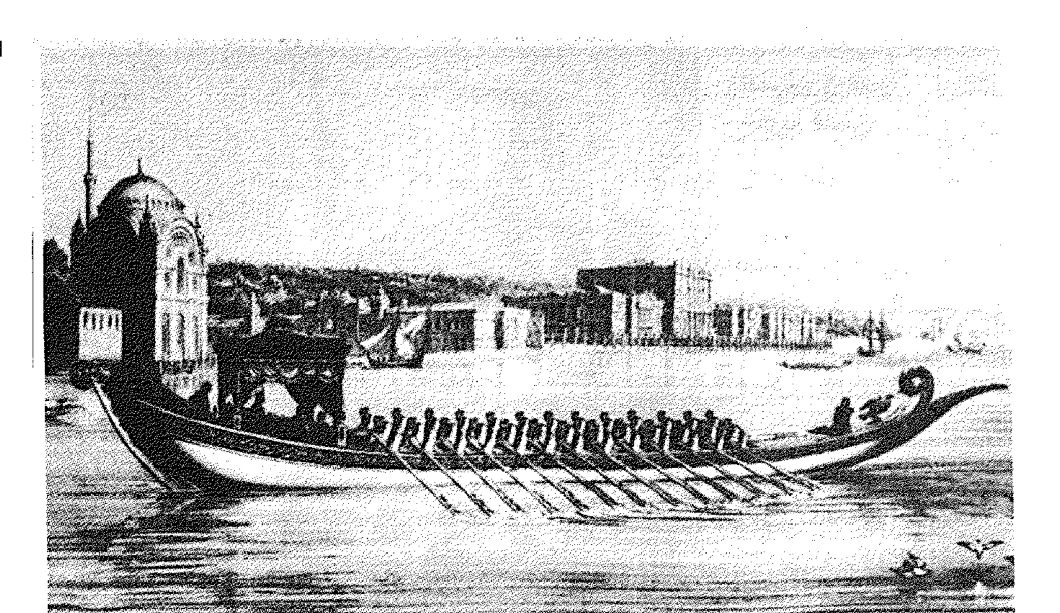
غلمان سراي ميدان الخيل أو سراي إبراهيم باشا

الوثائق والمصادر التاريخية لم تتعرض إلى قصر ميدان الخيل، ولم توليه أهمية نظراً لعدم قدوم السلاطين إليه سواء في الأعياد أو في المناسبات، بالرغم من الدور الذي لعبه في إعداد العناصر التي أدت خدمات في اخماد الفتن



□ احتفال ديني في قاعة العرش في قصر «طوب قابـي».

الداخلية التي كانت تحدث في مركز الادارة أو في غيرها من المدن القريبة إليها. وقصر إبراهيم باشا بني من قبل السلطان سليمان القانوني تكريماً لوزيره إبراهيم باشا والذي أدى خدمات جلى له ولامبراطوريته، إضافة إلى صلة القرابة وقد استخدم القصر لاعداد الجيش على الأعمال الحربية إلى أن أصبح بمثابة مدرسة عسكرية واستمر حتى تولية عثمان الثاني السلطنة سنة ١٦٢٢ وغدا دوره مقتصراً في إعداد العناصر الأعجمية في تلقينهم أصول القراءة والكتابة، ولم يمارس فيه تدريبهم على أعمال الخدمة كما كان يتم في بقية القصـور الأخرى والعنـاصر المتخـرجة منـه قسم ينضم إلى كتيبـة خياليـة عبيدالباب، والقسم الآخر يوضع تحت تصرف آغا الانكشارية فيوزعهم إلى حراسة القصور في ادرنة وبورصة، بقي علينا أن نلقي نظرة سريعة على عناصر الدفشرمة التي أعطيت أهمية من قبل سلاطين بني عثمان وكما ذكرنا سابقاً نتيجة المجـابهة التي شهـدها السلطان بـايزيـد عن تيمورلنك في معركة انقرا وتجنباً لكي لا يقع في تراجع أكثر مما حصل عمد إلى جمع العناصر الأعجمية، وأمر بـإعدادهم عسكـرياً بعـد أن انشئت مؤسسة خاصة بهم، وفي أواخر القرن الخامس عشر كانت عناصر الدفشرمة بأغلبيتها من العناصر الأرناؤوطية واليونانية والبلغارية، ثم أضيفت إليهـا العناصر الصـربيـة والمجـريـة والبوسنة والهرسك، كذلك شمل هـذا الاجراء العناصر الشابة من مسيحي الأناضـول، وفي القرن السابع عشر أخذت العناصر المسيحية من كافة الولايات العثمانية: حاجة الدولة إلى عناصر الدفشرمة كانت مرتبطة بديوان الانكشارية، لذا فإن اللجنة المشكلة لجمع العناصر كانت تؤلف من أوجاق الانكشارية والمنطقة التي ستأخذ منها عناصر الدفشرمة يصدر السلطان أمراً إلى أمير الصنجق وإلى مسـاعد خيـالة المشاة لتـأمين ومساعدة اللجنة المشكلة بمهمتها. ومع اللجنة يعين دفشرمة أميني وموظف دفشرمة، واللـجنة المشكلة تتـألف من رئيس السكبـان ورئيس الصولافية ورئيس السكوبونية ورئيس الذاغرجية (نسبة إلى نوع من أنواع كلاب الصيد) ورئيس الطورناجية وبعض الخصية وجمّال إضافة إلى رئيس المشاة واللجنة المشكلة يطلق عليها كتيبة جمع الدفشرمة ويرأسها ضابط يسمى آغا، وهذا التشكيل لم يكن قانوناً وإنما يكلف قائد الجيش وكاتب السلطان بذلك. وقبل انطلاق اللجنة تحدد لها المنطقـة والناحيـة اعمار الشبـان المطلوب أخذها، وموظف الدفشرمة يجري في بادىء الأمر إحصاء لشبان المنطقة وأعمـارهم وكان أغلب الأوقات يؤخـذ من البيت الواحد شـاب فقط أما الولد الوحيد لأهله لا يؤخذ، ويشتـرط في



□ نزهة السلطان في البوسفور، وخلفه تبدو اسطمبول بقصورها.

العناصر المؤخذة اللياقة والقوة البدنية والعناصر المجموعة أحياناً يتراوح عددها من ١٠٠ ــ ٢٠٠ شاب يطلق عليها اسم قطعان الدفشرمة (وقطعان الجمع أو القطف) وبعد الانتهاء من عملية جمع العناصر توضع تحت حراسة مشددة وبعد الباسها عباءة حمراء وقبعة حادة الرأس تميزاً لها، تنقل إلى المراكز المخصصة لها إلى أن يتم توزيعها على القصور لاعدادها وتدريبها وكانت عناصر الدفشرمة يعطى لها بدلاً عن المعاش المخصص لها اما (خلعت بها) أو (قول أقجة) أي ما يعادل (١٠٠) ليرة وفي القرن السابع عشر ارتفعت قيمتها إلى (٦٠٠) ليرة، والشبان اليهود لم تؤخذ نهائياً، كما ان غلمان (بوتور المسلمة) التي شملها نظام الدفشرمة عوملت معاملة خاصة، فالسلطان محمد الفاتح أصدر أمراً خول بموجبه عناصر بوتور الخاضعة إلى الدفشرمة بتسلم أي منصب يؤهلون له فالصدر الأعظم قبل فتح القسطنطينية كان يعين من المسلمين وفيما بعد أصبح يعين من الدفشرمة مما أتاح المجال أمام السلطان للانصراف إلى شؤونه الخاصة لأنه أمن جانب الصدر الأعظم وضمن اخلاصه، يضاف إلى هذا فإن عناصر بوتور منعت من الخدمة داخل القصر وضمت بعد إعدادها إلى أوجاق البوستانجية[٢٩] بقي علينا أن نشير إلى أن مسيحي طرابزون لم يطبق عليها نظام الدفشرمة حتى أوائل القرن السادس عشر حينما أصدر السلطان سليم الأول أمراً بتطبيقه عليهم[٣٠]. والجدير بالذكر فإن العناصر الأعجمية أوليت أهمية كبرى من قبل العثمانيين منذ منتصف القرن الرابع عشر حينما تولى السلطنة مراد الأول (١٣٦٠ ــ ١٣٨٩) حيث أمر بإلباس تلك العناصر البسة مميزة بعد تسجيلها في دفاتر خاصة بهم (طوربة أعجمي) وفيما بعد سميت الدفاتر بـ (دفاتر أوغلاني) أي حقيبة الغلمان وبعدها تسلم إلى آغاروم إيلي أو آغا الأناضول لتوزع على القرى لتعليمها اللغة التركية ولم يرم مراد الأول من ذلك تسخيرها في الأعمال القتالية أو في أعمال الخدمة إلا أن انتصار العثمانيين الساحق في كافة الجبهات ووقوع الكثير من الشبان المسيحية في الأسر والموقف الصعب الذي وقع به بايزيد الأول في مجابهة مع تيمورلنك في معركة انقرا وتجنباً لعدم وقوعه في تراجع أكثر أمر بالاستفادة منهم في الأعمال القتالية. هكذا كانت بدايات القصر العثماني منذ المراحل الأولى لنشوء امبراطوريتهم إلى أن هدأت العمليات الحربية لسلاطين بني عثمان فباستقرارهم استقر القصر وبلهوهم انحط القصر وغدا مكان لدس الدسائس وشراء الضمائر، بعد أن كان مقراً لعمليات حربية ودائرة محاسبة للمقصر في عمله، بقي علينا أن نلقي الضوء عليه حينما كان دار حرب ومركز سلطنة ويوم أصبح دار لهو وسمر ومركز بيع وشراء.

وإلقاء الأضواء على تلك الجوانب لن تتم

إلا من خلال قصر الطوب قابـي، ففي هذا القصر غرور الأمس وذكريات الماضي التليد. ●

الهـــوامش

(١) رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ٣٤٢ ــ ٣٤٣.
(٢) أولياء شلبـي سياحتي، ج ٢، ص ١٠.
(٣) Ismail Hakki uzun çarsili, saray teskilati s, 10.
(٤) المصدر السابق.
(٥) رسالة بشير شلبـي: مناقب مدينة أدرنة، ص ١٥.
(٦) المصدر السابق.
(٧) Ismail hakki uzun çargili, Saray teskilati. S, 10.
(٨) الذراع: ٧٥ ــ ٩٠سم ويختلف باختلاف الرجال (٢٠ ذراع حوالي ١٥ م تقريباً).
(٩) أولياء شلبـي سياحتي، ج ٣، ص ٤٥٥ ــ ٤٥٨.
(١٠) Ali, basilmamis nüsha, umumi Kütüphanesi varak 121.
(١١) Bas vekalet arsivi Emiri tasnifi vesika, No. 24.
(١٢) المصدر السابق.
(١٣) مصطفى صافي افندي: زبدة التواريخ، ص ٢٩٣.
(١٤) Ismail Hakki: Uzun çarsili, S. 300.
(١٥) Ismail Hakki: Uzun çarsili, S. 301.
(١٦) المصدر السابق.
(١٧) المصدر السابق.
(١٨) المصدر السابق.
(١٩) المصدر السابق.
(٢٠) كنة الأخبار، ج ٥، ص ١٥.
(٢١) Mühimme defteri, No. 24, S. 171.
(٢٢) تذكرة لطفي، ص ٣٥٩.
(٢٣) Mühimme defteri, No. 6, S. 467.
(٢٤) تذكرة لطفي، ص ٣٥٩.
(٢٥) رأس الزاوية وتعادل رتبة موظف صغير الأغاوات.
(٢٦) Ismail Hakki: Usun çarsili, S. 303.
(٢٧) أرشيف رئاسة الوزراء، وثيقة رقم ٢٤.
(٢٨) حديقة الجوامع، ج ٢، ص ٥٠.
(٢٩) Midhat Sert Oglu, Resimli Osmanli tarih, S. 76.
(٣٠) المصدر السابق.

الملاحظات

الغرفة الخاصة، خصصت في القصر العثماني غرفة أطلق الغرفة الخاصة، والسلطان محمد الفاتح هو الذي ادخلها، وفيما بعد عظم شأنها، وغدت من أهم أقسام القصر لجلوس السلطان بها. وقد خصص لها ٣٢ غلاماً مهمتهم فقط القيام على شؤونها، وفي نفس المكان أوجد السلطان سليم الأول الخرقة الشريفة، وفيما بعد أمر ببناء غرفة فوق الغرفة الخاصة أطلق عليها دائرة خرقة السعادة وفي عهد السلطان مراد الرابع انشئت غرفة لوازم للخرقة السعادة.

خرقة السعادة: حضرت الرسول صلعم، وكل ما يتعلق به حتى القصائد والرسائل التي وصلت والتي أرسلها اعتبرت من محتويات خرقة السعادة (وفيما بعد أطلق عليها الخرقة الشريفة) هذه الأشياء بعد أن قدمها شريف مكة، أمر السلطان سليم بوضعها في صندوق من الفضة وخصص لها غرفة في قصر بني عثمان، وشددوا المحافظة عليها، ولا تزال إلى الآن محفوظة في متحف الطوب قابـي في استانبول.

بوتور: وهي العناصر المسلمة من البوسة التي تتميز بطول الساقين، وشعرها المجعد، وكافة سلاطين بني عثمان أولوها عناية فائقة.

اندرون: وهو القسم المخصص للسلاطين أنفسهم ضمن القصر، ويمكننا تسميته بالجناح الخاص.

اقجة: وهي عملة عثمانية اقرها أورخان سنة ١٣٢٨ حينما كان في مدينة بورصة، وأول طباعتها كان وزنها ربع مثقال (٦ قراط) وفيما بعد حدثت تطورات عدة عليها من حيث الوزن والنوع، وفي قمة ازدهارها كانت تساوي ٤٠ قرشاً، وعندما طبعت الطبعة الأخيرة كانت تساوي قرشين من الفضة، ثم ابطلت وحل مكانها القرش. ومن الجدير بالذكر أن طبع أول أقجة غير معروف، إذ أن أول اقجة طبعت لم يسجل عليها تاريخ ضربها، بل طبع على إحدى وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله وأسماء صحابة رسول الله الأربعة في الوسط، وعلى الوجه الآخر أورخان خلد الله ملكه. والأقجة لم تطبع أو تصك من الذهب، بل من الفضة وحينما انهارت صكت من النحاس إلى ١ × حين ابطلت، ولم يقتصر في صكها على مقر السلطنة العثمانية بل ضربت في كل من كردستان وسوريا ومصر والحجاز وأذربيجان والعراق واليمن وطرابلس الغرب وتونس، وتعدد إمكان ضربها أدى إلى اختلاف في الكتابة والنوع والوزن.

هنكار: وهي لهجة كانت متداولة لدى إحدى الفروع التركية القديمة، ومعناها (البالغة الهدف) أو (المحققة الأهداف) أو (الأقوام الصائبة الظافرة) وغدا هذا بالنسبة لبني عثمان عموماً، ويقابلها في الفارسية باديشاه ويقابلها في العربية سلطان، ويقابلها في اللهجة التركية السائدة حكمدار، وكلمة خنكار أو هنكار لم تستخدم لدى سلاطين بني عثمان وإنما استخدمت من قبل العناصر التركية الأخرى والمعادية للسلالة العثمانية الحاكمة بقصد إغاظتهم وإهانتهم، ورداً على ذلك فقد استخدمها سلاطين بني عثمان على قسم الحريم، واعتبرت الدائرة التي اطلق عليها هذا اللقب غير محتومة، وقدر الإمكان كانوا يتجنبون تلفظها وزيادة في احتقارها وضع في أسفل احذية نساء هذه الدائرة ٦ مسامير من الفضة، فحينما كانت زوجة السلطان تسير تحدث المسامير التي في أسفل حذائها صوتاً، وفيما بعد أصبح هذا العمل عادة لدى سلاطين بني عثمان، والتي من خلالها استطاعوا مراقبة نسائهم وتحركاتهم.

مسيرة الوحدة اليمنية في عصورها القديمة

خالد محمد القاسمي

مباني اليمن التقليدية لا تزال تحافظ على طابعها القديم

تمثل العصور اليمنية القديمة أعظم وحدة اندماجية لشطري اليمن، بل والجزيرة العربية بأكملها.

فقد اتحدت هذه الكتلة العربية بقيادة دول خلّد ذكرها التاريخ فقد كانت ممالك «معين وسبأ وحمير» تمثل كل منها وحدة عربية كبيرة ومتماسكة ودانت لهما ممالك ودول كثيرة وأصبح حدود شطري اليمن يشمل البقاع الواسعة في الجزيرة العربية وقد ذكر مؤرخوا اليمن بأن حدودها في ذلك الحين كانت «من مشارف مكة إلى جبال ظفار».

وقد مثلت الوحدة اليمنية في ذلك الوقت أعظم تجمع — وحدودي عرفه التاريخ العربي واستمرت هذه الوحدة متماسكة حتى غزو الأحباش لليمن وسقوط دولة حمير فعندها تفككت هذه الوحدة. ولكن لم تلبث أن عادت أقوى مما هي عليه سابقاً وذلك في ظل الدولة الإسلامية.

وسنحاول في هذا البحث أن نستطلع بالدراسة والتحليل أحداث مسيرة الوحدة اليمنية عبر عصورها القديمة.

لقد ارتبط شطرا اليمن قديماً حيث كانا يكونان ما يعرف باسم اليمن السعيد فقد شهد الألف الثاني قبل الميلاد حضارة عربية راقية في جنوب الجزيرة، وقد وصلت هذه الحضارة إلى القمة في بداية الألف الأول قبل الميلاد أي في عهد الملكة بلقيس التي كانت تسيطر على اليمن والحبشة في آن واحد عندما تم لقاؤها بملك أورشليم سليمان الحكيم في أحد موانيء البحر الأحمر.

وإننا كنا نجهل الشيء الكثير عن المراحل السابقة التي مرت بها تلك الحضارة اليمنية قبل وصولها إلى تلك الحقبة المتطورة بعهد ملكة سبأ التي خلّد ذكرها القرآن الكريم فإننا نعلم من الخطوط العريضة الخاصة بممالك معين وسبأ وحمير وسائر الدول المتفرعة عنها بأن الحضارة التي عرفها العرب في اليمن تعتبر من أقدم الحضارات العالمية[1].

وإن بني قحطان من الساميين وكانوا من قادة الحياة المتطورة في بداية معرفتنا للتاريخ كما أن بعضهم وصل إلى سدة الحكم وأصبح من الأسر المالكة في العهد الفرعوني القديم بوادي النيل وفي عهد حمورابي في بلاد ما بين النهرين.

وكما نعلم أن الموجات البشرية التي صعدت من الجنوب وانتشرت في سائر أنحاء الشمال من شبه الجزيرة العربية جاءت من بلاد اليمن منبع القحطانيين وأصبح من الواضح لدينا اليوم أن الممالك المتحضرة التي قامت في مختلف أنحاء الجزيرة العربية على أطراف العراق وفي نجد وعلى الخليج وفي صحراء سوريا وشرقي الأردن لم تكن في الأصل سوى مستعمرات عربية يمنية تطورت إلى مستوى الممالك في وقت من الأوقات وتركت لنا أخبار مدنيتها وآثارها الرائعة، وما آثار البتراء في الأصل أحد مراكز التجارة اليمنية إلا نموذجاً عما وصلت إليه مدينة العرب القديمة قبل الاسلام في هذا المركز المعد لتوزيع تجارتها في الشمال.

يقدم تاريخ اليمن القديم مثالاً واضحاً في تاريخ الشعوب على دور الموقع والمناخ فموقع اليمن جعلها منذ القديم ممراً لأهم الطرق الرئيسية وتمكنت بفضل هذا الموقع ونشاط اليمنيين وبعض منتجاتها مثل البخور إنتاجاً وتسويقاً والذي كان سلعة دولية لارتباطها ببعض الطقوس الدينية على حركة التبادل التجاري في العالم القديم، وقد ساهمت هذه الحركة التجارية في تنشيط الزراعة وكانت الدول اليمنية القديمة مشهورة بإنشاء السدود وتنظيم الري في بيئة قابلة للانهيار، إذا ما تعرضت ولو لبعض الاهمال مما عقد طبيعة التحدي الذي واجهه اليمن القديم، وتحدي البيئة الذي كثيراً ما تمثل في تهديد القوى الامبراطورية «الدولية» وطمعها

في السيطرة على اليمن للاشراف على التجارة الدولية في تلك العصور، هذه البيئة التي لا تسلس قيادتها إلا لنظام قوي يرتكز على أسس وطيدة مع النظام والوحدة الروحية التي تتمثل في العقائد المشتركة في صورها المختلفة، واما الغزو الخارجي فلم يكل اليمنيون إلى مقاومته في شتى أشكاله وصوره فقد حاول اليونان والطالمة، والروم (البيزنطيين) والفرس، الحد من سيطرة اليمن على طرق التجارة أو الاستيلاء عليها[٢].

وكان ازدهار اليمن داخلياً، ودوره في العالم القديم، مرتبطاً باستتاب أحواله الداخلية وفي ظل دولة مركزية قوية، تعنى بالمرافق العامة، لتحسين تنظيم تجارتها، وإدارة، علاقاتها بالدول الأخرى ولذا جاء الازدهار الذي شهده اليمن في القرن الثاني والثالث والخامس بعد الميلاد وفي أكثر الأحيان مصحوباً بفشل القوى الخارجية الكبرى في السيطرة على طرق القوافل وقدرة اليمنيين على توظيف هذا الفشل لتدعيم عوامل القوى والازدهار والسيادة في أرضهم فكما حدث بعض فشل حملة اليوس جاليوس (٢٤ ق. م)[٣]. أما الحضارات القديمة التي قامت في اليمن فتشمل على دولة عظيمة خلد ذكرها التاريخ العربي القديم على مر العصور وهي: دولة معين وسبأ وحمير، هذا إلى جانب دول صغيرة أخرى قليلة الشأن مثل قتبان وحضرموت وأوسان وجبا وسمعي وأربع. والواقع أن معظم هذه الدول لم تحتفظ باستقلالها طويلاً حيث انضمت إلى دولة سبأ في فترات لاحقة.

وقد بدأ حكم أولى هذه الدول «دولة معين» منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد وكانت عاصمتها مدينة معين حيث سميت الدولة باسمها وعرف الشعب به وكانت معين مركزاً للثقافة العربية قبل الاسلام ولم يكن ذلك لأسباب جغرافية فحسب بل لبعض عوامل تجارية واقتصادية أخرى، وقد امتدت دولة معين في رقعتها السياسية لتشمل اليمن والحجاز حتى فلسطين في عرف اليوم[٤]، كما لعب مركز معين الاستراتيجي في مفترق طرق القوافل الذاهبة والعائدة إلى شمال الجزيرة ومنها الدور الأساسي والرئيسي في قيام الحضارة في معين قبل غيرها

□ بعض ما بقي من آثار سد مأرب.

من مناطق اليمن على حسب راي بعض العلماء بل وأكثرهم ممن يدون في أحراز معين مثل هذا السبق الحضاري في اليمن. ولقد اعتمد هذا الرأي على كون التجارة هي العمود الفقري والأساسي في بناء الحضارة اليمنية المعينية على وجه الخصوص.

لقد تشكلت في معين شيئاً فشيئاً وخلال العملية التجارية الضخمة التي ربطت جنوب الجزيرة بشمالها وبمصر والعراق والخليج نواة حضارة في جنوب الجزيرة العربية وبرز في هذه العملية التجارية التجار المعينون كمسيطرين فعليين على التجارة في الجزيرة، ومنظمين رئيسيين لها في أغلب الأحيان، فأصبحوا ذوي امتيازات فرضتها طبيعة أرضهم الاستراتيجية التجارية.

ولقد أخذت بواكير التطور التجاري تمد جذورها في أرض معين وبالتالي في الأرض اليمنية كلها.

إن الطريق التجاري المنطلق من حضرموت (قنا) حيناً و (الشحر) حيناً آخر والممتد حتى سوريا عبر معين، والآخر إلى العراق عبر الجوف

قد لعب دوراً إيجابياً في خلق معين وحضارة وتمدن هذه المملكة.

ولقد قامت أهمية معين على وضعها الاستراتيجي الواقع في مفترق طرق التجارة وفي قلب الأرض اليمنية، والذي عكس نفسه فيما بعد تجارياً وحضارياً فمعين بموقعها في منتصف الطريق التجاري والشرقي والموصل بين اليمن وممالك الشمال ومصر قد أكسبها أهمية بالغة بالنسبة للتجارة قبل الميلاد بخمسة قرون في رأي البعض وبخمسة قرون ويزيد في رأي البعض الآخر.

ولقد ازدادت هذه الأهمية التجارية عمقاً واتساعاً بعد أن ازداد ارتباط الأرض اليمنية بالعالم الخارجي على أثر تزايد أهمية سلع اليمن آنذاك لحضارات تلك الدولة واستمرارية بقائها، والذي حددته طبيعة التوجه الفكري الديني وقتئذ[٥].

ولقد برزت مدن معين كمراكز رئيسية وفي غاية الأهمية لتجارة اليمن مع العالم الخارجي فمارست التجارة والرساميل التجارية اليمنية والعربية دورها من قيام ونشوء حضارة معين وازدهارها.

واستطاعت الحياة الاقتصادية التجارية المزدهرة والمستقرة أن تضرب جذورها فوق أرض الجوف لتقوم على أثرها حياة الفرد هناك، متسمة بادىء ذي بدء بالقضاء على الروح القلبية وانتزاع الناس من حياة البداوة والترحل إلى حياة الاستقرار، وتحول أرض الجوف كذلك من منطقة تعتمد على الزراعة الأولية والبدائية إلى ـــ منطقة تجارية ضخمة يجد فيها الإنسان حاجياته ليس فقط الضرورية وإنما مستلزماته الكمالية والحضارية المستوردة من شمال الجزيرة، والتي كان يتم توزيعها على الجزيرة العربية عبر معين الجوف. كما عملت تلك الحركة التجارية على تطوير وسائل الزراعة تلبية لحاجيات التجارة فتعرفت الجوف على وسائل أرقى لتتمكن من تلبية متطلبات التجارة المتزايدة باضطراد.

لقد خلق ذلك الانعاش الاقتصادي التجاري حركة عمران متزايدة، وغير في بنيتها الزراعية لتبرز معين كأهم مدنية في جنوب الجزيرة وعلى الأرض اليمنية، ولقد وجد الانسان اليمني في معين الحياة الاقتصادية المنتعشة والمستقرة، فثبت وجوده على أرضها وفوق مدنها التي قام هو بتعميرها وتشييدها مما أدى إلى تكوين حضارة تجارية فيها قبل غيرها من البقاع اليمنية الأخرى.

ولقد شكلت الحركة التجارية في معين العمود الفقري لانتعاش سكان مدنها، فشاركوا جميعاً بتنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية ليؤمنوا سير التجارة التي ارتبطوا بها مصيرياً دون مشكلات وعوائق، فأمنو طرق السير، وارتبطوا مع جيرانهم بعلاقات حسن جوار ومودة، فلم يعتدوا ولم يفتحوا ولم يغزوا منشغلين بحياتهم التجارية المنتعشة، وهذا ما أبعدهم عن كل حركات الغزو والفتوحات.

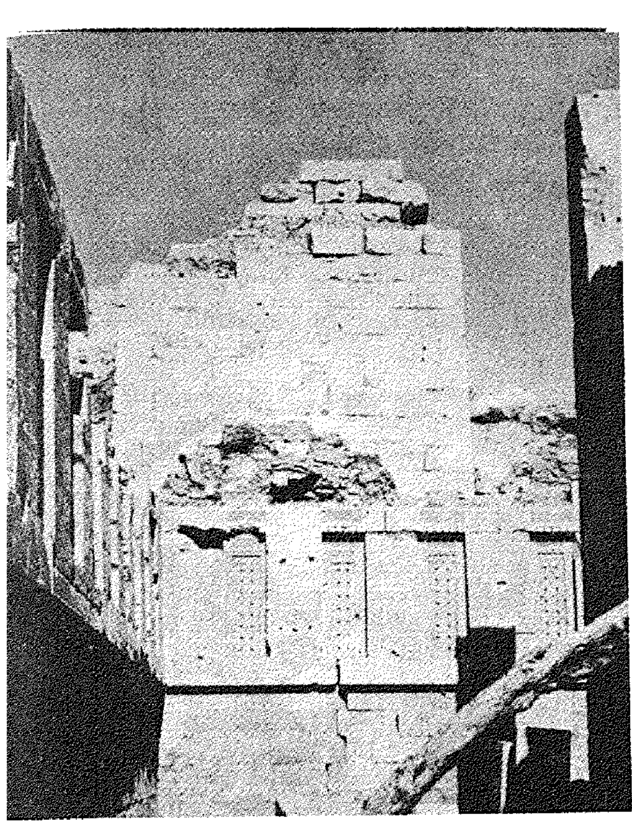
ومن هنا جاءت مدينتهم وحضارتهم تلك معتمدة ومرتكزة على الحركة التجارية كنتيجة طبيعية لخصوبة الأرض في معين الجوف ولموقع معين الاستراتيجي التجاري.

ومن هنا تكونت قناعات لدى الكثير من الباحثين والمنقبين في التاريخ اليمني أن حضارة

معين هي أولى حضارات اليمن وأقدمها نشوءاً، وأن تلك الحضارة قد تميزت بخصائص معينة وخاصة بها جاءت على أثر ازدهارها، وانتعاش اقتصادي أملته طبيعة الأرض الاقتصادية الجغرافية حيث تتمتع الجوف بمناخ وتربة صالحة للزراعة مكنت معين إلى جانب موقعها الاستراتيجي التجاري، من بناء حضارتها تلك وتمدنها على أسس من علاقات حسن الجوار وتبادل المصالح الاقتصادية التجارية، وأبعدت معين عن ذاك الأسلوب التقليدي لبناء التمدن والقائم على البطش والغزو والتدمير للجيران ورفضت انتقال الحضارة عبر أسنة الرماح وعلى شفار السيوف والخناجر بأسلوبها وطريقتها التي تفردت بها دون سائر الممالك اليمنية الأخرى.

وهكذا ظلت دولة معين حتى القرن الثامن قبل الميلاد، وبعضهم من يقول حتى القرن السادس قبل الميلاد تجزأت بعدها إلى مدن عديدة، استقل كل منها بشؤونها عن الدولة المركزية حيث ضعفت قدرتها على الصمود بوجه الملك السبائي «كرب آل وتر» الذي أفلح في ابتلاعها ودمجها في دولة سبأ[٦] وفي القرن الثامن قبل الميلاد قامت دولة سبأ على أنقاض دولة معين حيث كانت معين فريسة لطموح سبأ وضحية لسياسة التوسع التي أنتجتها لتخفيف بعد أهدافها السياسية. ويظهر سبأ كانت الأقوى عسكرياً إذ سرعان ما قضت على مقاومة ملوك ورؤساء الاقطاعيات الصغيرة وانتصرت عليهم بحرب حاسمة سقطت على أثرها جميع الولايات والمدن وكانت مدينة «صرواح» عاصمة سبأ وتبعد هذه المدينة نحو أربعين كيلو متراً غرب مدينة مأرب التي أصبحت العاصمة الثانية لدولة سبأ في فترة لاحقة. وقد كانت مأرب كما وصفها الرحالة اليوناني «استرابوت» منذ القرن الأول الميلادي «مأرب كانت مدينة عجيبة سقوف أبنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة وفيها ما يبهر العقول ولذلك فإنه يهون علينا سماع ما ذكره العرب عن إرم ذات العماد»[٧].

وامتازت حضارة السبئيين بإنشاء السدود والتي من أشهرها سد مأرب وقد كانت بلقيس من أشهر ملوكهم وهي التي جاء ذكرها في القرآن



□ معبد «إله القمر» احد رموز الحضارة اليمنية القديمة.

الكريم عندما نقل الهدهد إلى سليمان وصفاً لحالها حيث قال:
«وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون» وبعد أن أرسل لها سليمان رسالته وجرت مقابلتها له قالت: «ربي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»[٨].

وكان ملوك سبأ يحملون لقبين أحدهما «مكرب» وهو لقب ديني والآخر «ملك» وهو لقب سياسي دنيوي ولذلك فقد اختلط النظام السياسي في تلك الدولة في بدايته بالدين حيث كان لكل وحدة سياسية الهها الخاص الذي يجمع شمل القبيلة أو المدينة أو القرية. وقد بدأت ألقاب سبأ تزيد في مفرداتها حتى صارت في أواخر القرن الثالث للميلاد تعرف «بمملكة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت» ويعتقد الباحثون أن اسم اليمن اشتق من كلمة «يمنت» القديمة وحين قضى على سبأ الأولى وانهارت مدينة مأرب عاصمتهم، تفرق أهل اليمن، وأصبح لكل قرية رئيس

يحكمها ويطلق على هؤلاء الرؤساء «الاذواء» حتى استطاع أحد حكام المدن «ذو ريدان» أن يكون دولة حمير في نهاية القرن الأول قبل الميلاد[٩].

ويذكر الأستاذ محمد يحيى الحداد في كتابه «تاريخ اليمن السياسي» أن ملوك سبأ اختلطوا بحمير والحميرين منذ القرن الثالث للميلاد، وقد صار بعض ملوك سبأ من الطبقة الثانية يعرفون بالتابعة الحميريين، وذلك تمييزاً لهم عن ملوك سبأ من الطبقة الأولى وهم ملوك سبأ وذي ريدان. وقد يظن بعض المؤرخين أن ملوك هاتين الطبقتين كانوا من الحميريين أيضاً. وقد بدأ الصراع حول عرش سبأ وذي ريدان بين بيتين من بيوت سبأ وهما بيت «البكيلي» وبيت الحاشدي وقد أدى مثل هذا الصراع إلى ضعف قوة الجانبين المتنافسين، الأمر الذي استغله الحميريون إذ تمكنوا من القضاء عليهما معاً وصبغت الدولة منذ ذلك الوقت بالصبغة الحميرية وصار اسم مملكة حمير يطلق على جميع مملكة سبأ وذي ريدان منذ عام ٦٠ قبل الميلاد[١٠].

ولعب الحميريون دوراً خطيراً في السياسية العربية الجنوبية، وقد وصل صيتهم إلى اليونان والرومان فدعوهم باسم (OMYRTAI, HOMERITAL, HAMIROEI) ونحو ذلك، وقد كانت عاصمتهم مدينة «ظفار» ويذكر مؤلف كتاب «الطواف حول البحر الارتيري» أن الحميريين كانوا يحكمون منطقة واسعة من ساحل البحر الأحمر وساحل المحيط حتى حضرموت كما كانوا يمتلكون ساحل عزابنا في أفريقية أي قسماً من الساحل الشرقي.

لقد بدأ الدور الحميري عام (١١٥ ق. م) حيث انتقلت عاصمة السبئيين إلى ريدان (ظفار) وأماطت اللثام النقوش عند ملوك بلاد العرب الجنوبية وهم يحملون لقباً جديداً هو ملك سبأ وذو ريدان، وعرفت ريدان أخيراً باسم «ظفار» والظاهر أن الحميريين كانوا يقيمون في ريدان قبل هذا التاريخ بأجيال وكانوا يسمون أنفسهم «بالأقيال والأذواء» ويقال أنهم كانوا حكاماً في «قتبان»، وتختلف دولة حمير عن دولة سبأ إذ نبغ من ملوكهم زعماء فتحو الممالك وحاربوا الفرس والأحباش وغيرهما وتنتمي دولة حمير بذي نواس عام ٥٢٥م وعلى هذا فقد حكمت الدولة الحميرية زهاء (٤٦٠) عاماً قسمت إلى مرحلتين متعاقبتين.

١ ــ دولة حمير الأولى وتبتدىء من عام (١١٥ق. م /٢٧٥م).

٢ ــ دولة حمير الثانية وتبتدىء من عام (٢٧٥م /٥٢٥م).

وكانت عاصمة كل من الدولتين مدينة «ريدان» «ظفار» وظفار هذه هي التي حلت محل مأرب عاصمة السبئيين وقرناد عاصمة معين، وكان لقب الملوك في الدولة الحميرية الأولى «ملك سبأ وذو ريدان» وعددهم ثمانية عشر ملكاً أما الدولة الحميرية الثانية المعروفة لدى العرب بدولة التبابعة فكان لقب ملوكهم «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت» وقد أضيف فيما بعد كلمات وعربهم في الجبال وفي تهامة وعددهم (١٤) ملكاً.

كان الحميريون يشتغلون بالتجارة وخاصة تجارة اللبان والبخور ويعتبر عملاً دينياً إلى جانب إنه الدخل العظيم للدولة[١١].

وقد وقعت عدة حوادث في عصر الدولة الحميرية الأولى فقد حاول الرومان فتح بلاد العرب الجنوبية في حوالي عام (٢٤ق. م) في عهد الامبراطور أغسطس قيصر الروم حيث أرسل حملة من مصر تحت قيادة حاكمها «ايليوس جاليوس» هدفها الاستيلاء على طرق النقل التي كان يحتكرها عرب الجنوب واستغلال موارد اليمن لمصلحة روما ولكن باءت هذه الحملة بالفشل الذريع ولم تفكر بعدها روما ولا غيرها من الدول الغربية في محاولة غزو بلاد العرب الجنوبية[١٢] كما حدث في عصر هذه الدولة أن هاجر جماعة من أهل اليمن إلى بلاد الحبشة فأنشأوا فيها مستعمرة ونجحوا في إقامة ثقافة عربية، لم يتمكن الأحباش من الوصول إليها ولم تظهر الأهداف التي حملت اليمنيين لذلك، ولعله يرجع إلى قوة التجارة التي اشتهرت بها قوة العرب ويعتبر هذا غزو لقارة أفريقيا سبق الفتح الاسلامي[١٣] وينسب إلى أحد ملوك هذه الدولة «اليشرح بن يحصب» تأسيسه لقصر «عمدان» «المشهور في صنعاء الذي كان مكوناً من عشرين

طابقاً كان أول ناطحة للسحاب وقد شيد هذا القصر من الجرانيت والمرمر وغطيت أعلى طبقة منه بصفحة واحدة من حجر المرمر الذي بلغ شفافته أن يستطيع الانسان أن ينظر من خلاله السماء، وكان الغرض من تأسيس هذا القصر وغيره من القصور التي كانت شائعة في اليمن هو حماية الأمراء الحضر لأنفسهم من قارات البدو.

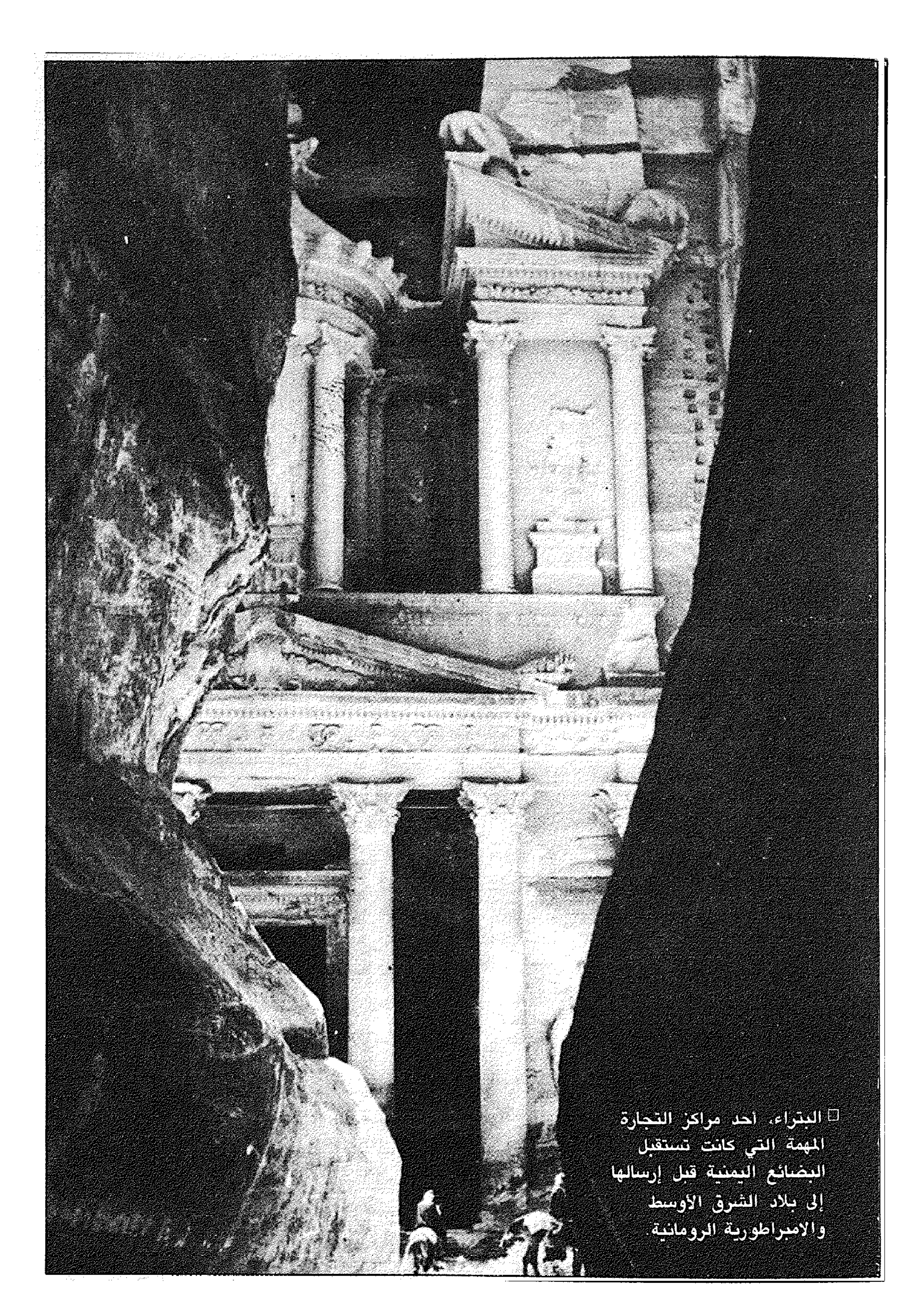
وكان نظام الحكم في هذا العصر الحميري الأول نظاماً إقطاعياً من أساسه ولكنه كان خليطاً غريباً من النظام القبلي القديم ونظام الطبقات الأرستقراطية والملكية والاقطاعية(١٤).

وفي قرب نهاية هذا العصر الحميري الأول ابتدأت قوة عرب الجنوب تنزل من عليائها وكان ذلك نتيجة لتفرقهم بين الطريق البري والبحري في نقل التجارة وغيرها يضاف إلى ذلك مزاحمة الرومان للعرب في الطريق البحري مزاحمة خطيرة وخاصة بعد تنظيم المتاجرة البحرية خلال القرن الأول الميلادي ولو أنهم ثبتو على الطريق البري عبر الحجاز الذي كان غاصاً بالمحطات الحميرية وكان آمناً من أن يزاحمهم فيه آخرون، وهذا الطريق البري بمحطاته المتعددة هو الذي أشار إليه القرآن الكريم و «جعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيرو فيها ليالي وأياماً آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»(١٥).

هذا وقد أخذت دولة البطالمة في الازدهار والاستيلاء على مقاليد التجارة العربية وكانت دولة سبأ في دور الاحتضار وانتهى الأمر بسقوطها كما بينا سابقاً، وعلى أثر سقوطها قامت مقامها الدولة المشهورة «الدولة الحميرية» ومن حسن حظ هذه الدولة أنه في الوقت الذي أخذت تظهر فيه ابتدأت دولة البطالمة تضعف وتتلاشى أمام نفوذ دولة الرومان المتغلبة وكانت نتيجة ذلك أن التجارة القديمة أخذت تعود إلى طريقها القديم عن طريق البر كذلك كانت دولة قتبان قد سقطت أيضاً في بلاد اليمن ولم يكن للحميريين منازع في الطريق التجاري وقد عمرت هذه الدولة أكثر من ٦٤٠ عاماً(١٦).

وقد أحرز الحميريون انتصارات كبيرة في المجال الحضاري والتجارة خاصة في عصر الدولة الحميرية الثانية (٢٧٥ق. م /٥٢٥م) كما استطاعوا السيطرة وبسط النفوذ في كافة جنوب الجزيرة العربية واستطاعت دولة حمير الثانية أن تلم شعثها حوالي ٢٥٠ عام وضمت إليها القبائل المجاورة من بدو وحضر، فأخضعت حضرموت وكل بلاد اليمن فأصبح لقب الملك الحميري هو «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت» بامبراطورية تخضع بلاد كثيرة لسلطانها وهذه الدولة هي المعروفة عند العرب بدولة التبابعة وكانت الحركة التجارية في اليمن هي المصدر الرئيسي الذي يقوم عليه كيان البلاد الاقتصادي والسياسي في ذلك الوقت بالذات وحولت السفن التجارية اتجاه سيرها عابرة المحيط الأطلسي لأول مرة بعد اكتشاف هيبالوس اليوناني لاتجاه الرياح في المحيط الهندي وأصبح البزنطيون بعد أن استولوا على مصر وكان لهم علاقة كبيرة مع اليمنيين في المجال التجاري وكذا تجارة الهند والصين ويسافرون بتجارتهم عبر المحيط الأطلسي وبهذا توقفت حركة القوافل اليمنية تدريجياً وأخذت حالة اليمن التجارية تسير من سيىء إلى أسوأ بسبب نشوب الخلاف المحتدم والنزاع الدائم والذي ذكرها بعض المؤرخين بين الهملانيين وما تبقى من سلالة الريدانيين وانصراف ملوك حمير إلى الاهتمام بالغزو والحرب وإخضاع الأطراف أكثر من اهتمامهم بالزراعة والعمران وفتح آفاق جديدة في المجال التجاري الذي هو أحد مقومات الحياة في البلاد ويعتبر هذا الاتجاه الحربي الذي سلكه ملوك الحميريون وبالأخص ملوك الطبقة الثانية واهتمامهم بتشييد الحصون والقلاع الحربية واستبدالهم بمدينة مأرب المحفوظة بالجبات الزاهرة والمروج الخضراء بمدينة ظفار الاستراتيجية وغيمان وغيرها لقد أضر هذا كثيراً بحالة اليمن الاقتصادية كما أثر في عمرانها وازدهارها بالاضافة إلى ما أصاب اليمن من النكسة الكبرى والخسران لتمويل الطرق التجارية(١٧).

ويمتاز العصر الحميري الثاني بدخول النصرانية واليهودية إلى اليمن ومحاولة زحزحة الديانة الوثنية التي كانت تدور حول عبادة



□ البتراء، أحد مراكز التجارة المهمة التي كانت تستقبل البضائع اليمنية قبل إرسالها إلى بلاد الشرق الأوسط والامبراطورية الرومانية.

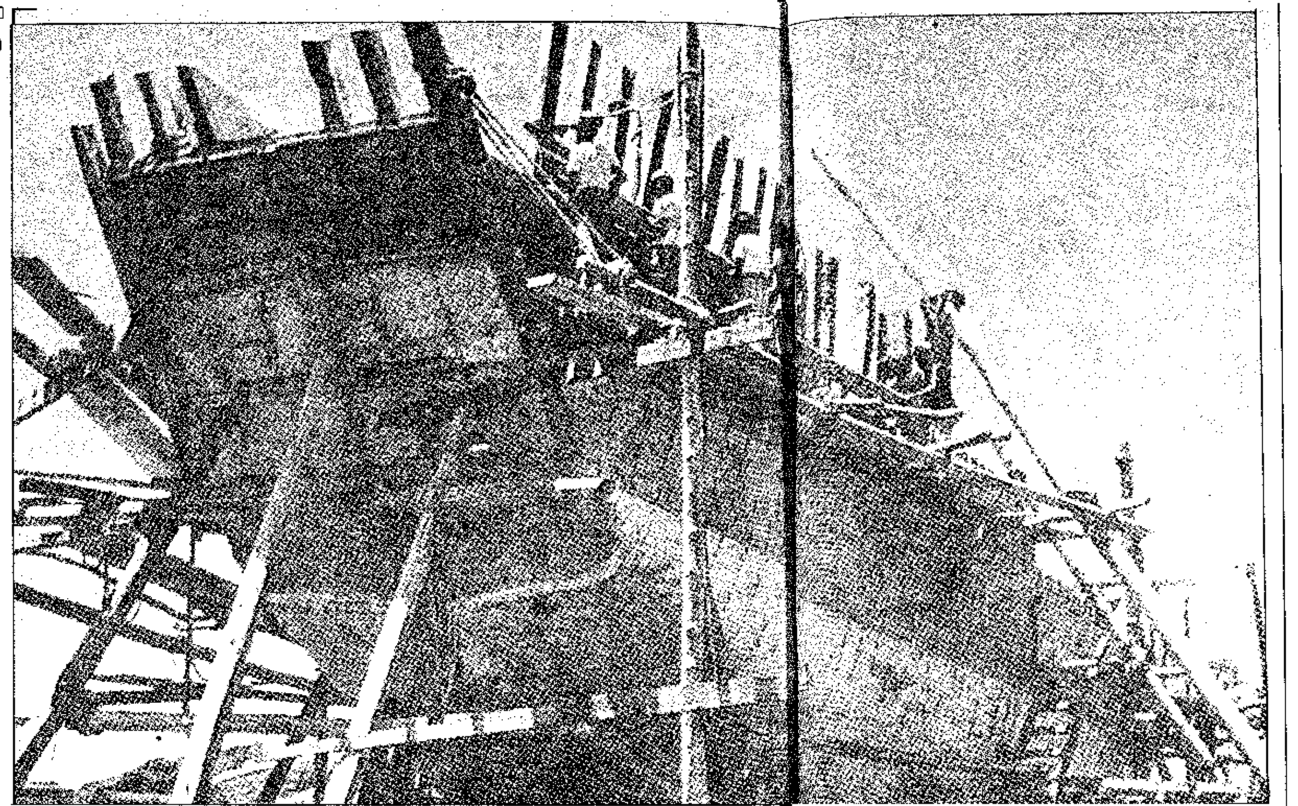
النجوم والكواكب والشمس عنها وقد بدأت المسيحية على المذهب المنوفستي القائل بأن المسيح له طبيعة واحدة تسلك سبيلها إلى الجنوب من الشمال وكانت روما تشجع الديانة وتستعين بالأحباش الذين تنصروا أيضاً على نشرها وكان غرض روما من تشجيعها للمسيحية غرضاً سياسياً أكثر منه دينياً وانتشرت في الوقت نفسه الديانة اليهودية في بلاد اليمن وكانت قد توطنت قبل ذلك في شمال بلاد العرب وشجع الملوك الحميريون اليهودية ليقاوموا المسيحية دين عدوهم السياسي والاقتصادي.

وفي عام (٧٠) ميلادية كان اليهود قد نزحوا من بلاد فلسطين بعد أن دمرها الامبراطور الروماني (بنتوس) وحطم هيكل أورشليم — حينما تقدم في الأقطار ووجد بعضهم في اليمن بلداً آمناً يأوون إليه مكاناً حصيناً يقيمون فيه وبعد مضي برهة من الزمن تمكنوا من السيطرة على مرافق الحياة التجارية في اليمن مما ساعدهم على نشر الدين اليهودي في اليمن وكان أول من اعتنقه هو الملك أسعد الكامل ثم بعده ذو نواس وهو آخر الملوك الكبار لدولة حمير الثانية[١٨] هذا وقد أدى تعصب ذو نواس الذي أسمى نفسه «يوسف» للدين اليهودي إلى إيقاعه بنصارى نجران في قصة الأخدود المعروفة في القرآن الكريم وذلك بعد ما شكى إليه يهود نجران غلبة النصارى، أثر نشوب فتنة بين الجانبين فنهض يوسف ذو نبراس إلى نجران عام ٥٢٣م وحفر الأخدود وأضرم فيه النار وخير النصارى بين الرجوع عن دينهم أوالقائهم في الأخدود فأبى الكثير منهم عن الرجوع عن دينهم النصرانية في أوروبا والحبشة وأصبحت اليمن مسرحاً للنزاع والحرب بين اليهودية وعلى رأسها يوسف ذو نواس وبين المسيحية ومن ورائها قيصر الروم ونجاشي الحبشة[١٩].

وقد وجه آنذاك «مارسمعون» أسقف بيت أورشليم نداء إلى أساقفة الروم والحبشة دعاهم فيها إلى مناصرة أخوانهم في الدين كما غضب لهذا الحادث ملك الروم فكتب إلى نجاشي الحبشة وهو على دين النصرانية أن يجرد حملة عسكرية من جهته للقضاء على يوسف ذو نواس وأتباعه من اليهود في اليمن فأرسل النجاشي قوة كبيرة تتكون من أربعة آلاف مقاتل جندي بقيادة أرباط وجرت بين الفريقين معارك دامية كانت الغلبة في النهاية للأحباش مما اضطر يوسف ذو نواس إلى إلقاء نفسه في البحر[٢٠].

وهكذا انتهت الدولة الحميرية واستولى الأحباش على اليمن عام ٥٢٥ وقبل ٥٣٣م وفي تلك الآونة قام ابرهه بن الأشرم وكان أحد قواد النجاشي في اليمن بثورة ضد النجاشي فقتل قائد الحملة «أرباط» وحكم اليمن ما يقرب من ١٥ عام ودعا نفسه ملكاً عليها وعمل على تنصيرها وهو الذي بنى كنيسة «القليس» بصنعاء وأرغم الناس بالحج إليها بدلاً من البلاد الحرام[٢١].

وفي اعتقادنا أن أسباب الغزو الحبشي لليمن



□ بناء السفن في اليمن لا يزال يحافظ على طابعه التقليدي القديم.

تعود إلى عدة عوامل أهمها:

١ ــ العمل على نشر اليهودية وهي الديانة التي أعتنقها يوسف ذو نواس في منطقة بخران النصرانية، والعمل على إيقاف التبشير المسيحي في تلك المنطقة.

٢ ــ الانتقام لما يلاقيه اليهود من اضطهاد في الدولة البيزنطية المسيحية.

٣ ــ السيطرة على منطقة بخران الغنية بالنخيل وذات المركز التجاري العظيم.

٤ ــ منع وصول الهدايا والأموال إلى قيصر بيزنطة أو نجاشي الحبشة لأنه معنى ذلك هو ولاء منطقة نجران اليمنية للأجانب، ويعني سكوت «يوسف ذو نواس» اعترافه بالتدخل الأجنبي وولاء نجران لغيره وتذكر الروايات العربية أن «يوسف ذونواس» قد خير أهل نجران بين الدخول في اليهودية أو القتل فرفضوا إجابته إلى طلبه فقتلهم جميعاً ما عدا شخصاً واحداً اسمه «دوس ذو ثعلبان» تمكن من الفرار من المذبحة.

وإضافة إلى أسباب أخرى دينية واقتصادية وسياسية وعسكرية: أما السبب الديني فهو الانتقام لما فعله «يوسف ذو نواس» ضد نصارى نجران ثم العمل على نشر المسيحية في اليمن، وتجمع روايات الأخبار بين أن «دوس ذا ثعلبان» أخبر قيصر بيزنطة ونجاشي الحبشة بنبأ المذبحة وأياً كان نصيب هذه الرواية من الصحة فإنه من المحتمل جداً أن يكون خبر هذه المذبحة قد وصل مسامع النجاشي عن طريق التجار الأحباش الذين كانوا يرتادون منطقة نجران وساعد ذلك قرب

المسافة بين الحبشة ونجران، كما أنه من المحتمل جداً أن يكون القيصر قد علم بخبر المذبحة من قبل المبشرين أو التجار البيزنطيين الذين تضرروا مما فعله «يوسف ذو نواس»[٢٢] أما العامل الاقتصادي فهو من أهم الدوافع لفتح اليمن وفي نظرنا أن هدف الأحباش من وراء ذلك إلى فتح أبواب هذه المنطقة أمام التجارة الحبشية والسيطرة على تجارة اليمن ونقلها إلى يد الأحباش ومن جهة ثانية السيطرة على الأراضي اليمنية الخصبة والغنية بالمحاصيل الزراعية. وقد وقفت بيزنطة تؤيد الحبشة في غزوها لليمن أملاً من وراء ذلك إعادة التجارة البيزنطية إلى منطقة نجران وسيطرتها على تجارة المحيط الهندي ومن ثم إغلاق الأسواق اليمنية في وجه التجارة الفارسية.

أما الدوافع السياسية فقد رغب نجاشي الحبشة في تكوين امبراطورية واسعة من ضمنها اليمن كما أن قيصر بيزنطة ورغم عدم وضوح موقفه من الحملة، إلا أنه كان يأمل في إيجاد جبهة سياسية من بيزنطة والحبشة واليمن ضد عدوه التقليدي كسرى فارس، ويذكر بعض العلماء أن يوسف ذو نواس قام بحملة فاشلة ضد الحبشة وعليه فإنهم يذكرون بأن الغزو الحبشي لليمن كان رد فعل ضد غزو يوسف تلك[٢٣].

وإذا ما تحدثنا عن الدوافع العسكرية للغزو الحبشي لليمن عام ٥٢٥م فإنه لا يخفي على أحد أهمية «عدن» و «باب المندب» من الناحية العسكرية، ففي السيطرة على هذا الموقع الاستراتيجي العسكري لليمن، معناه السيطرة على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي. أصبح أبرهة حاكماً لليمن وانحصرت في يده كافة السلطات، واتخذ من صنعاء عاصمة له. ويبدو أن أبرهة كان عند بداية توليه حكم اليمن يبعث الجزية لنجاشي الحبشة ويعترف له بالتبعية والولاء، لكن أبرهة آنس في نفسه القوة بعد أن سيطر على اليمن بتجارتها وزراعتها وكنوزها ومن ثم قطع الجزية عن النجاشي وأعلن استقلاله ويتضح ذلك من استقبال أبرهة لوفود الدول ومن بينها وفد عن نجاشي الحبشة[٢٤].

تم في عهد أبرهة إصلاح سد مأرب، كما أن المسيحية أخذت في الانتشار عن طريق المبشرين، وقد بنا عدة كنائس مثل كنيسة نجران وظفار والكنيسة الشهيرة باسم القليس (صنعاء) ومن الجدير بالذكر أن أبرهة قام في ٥٧٠م بإرسال حملة لاحتلال مكة.

ويذكر الرواة أن سبب هذه الحملة يرجع إلى أن شخصاً يختلفون في اسمه أهان كنيسة أبرهة بوضع جيفه فيها فأراد أبرهة أن ينتقم لهذه الإهانة الدينية بتدمير الكعبة ومن ثم إعلاء مكانة القليس عن طريق إكراه الناس بالحج إليها وربما هدف أبرهة إلى نشر المسيحية في الحجاز بصورة واسعة، وفي نظرنا أن أبرهة هدف من غزو الحجاز إلى فتح الطريق إلى بلاد اليمن أمام التجار الروم والسيطرة على مكة ذات المركز التجاري الكبير وأياً كان سبب هذه الحملة وغرضها فأنها قد فشلت فشلاً ذريعاً وليس هذا مجال لذكر تفاصيل ذلك.

توفي أبرهة بعد فشل حملته على الحجاز بقليل، وحكم اليمن من بعده ولده «إكسيوم» ثم تلاه ابنه الثاني «مسروق» وبنهايته انتهى حكم الأحباش لليمن.

في عام ٥٧٦م تم طرد الأحباش من اليمن وتحريرها من الحكم الحبشي وإعادة الحكم إلى الحميريين على يد سيف بن ذي يزن وهو من أبناء ملوك حمير، وتتعدد الروايات التاريخية في طرد الأحباش عن اليمن على يد سيف بن ذي يزن فمنها ما يذكر بأنه ذهب إلى قيصر الروم طالباً العون لطرد الأحباش ولم يجبه القيصر إلى طلبه غير أننا نرى أن سيف بن ذي يزن لم يذهب إلى القسطنطينية للأسباب التالية:

(أ) بعد المسافة بين عاصمة الدولة البيزنطية واليمن.

(ب) الديانة المسيحية المشتركة بين الأحباش والبيزنطيين.

(ج) كان القيصر يعتبر الأحباش في اليمن وكلاء غير شرعيين لمصالح دولته الاقتصادية هناك فإذا ما علمنا بأن سيف بن ذي يزن أحد أبناء ملوك حمير كان يعرف الصلة القوية التي تربط الأحباش بالروم لأدركنا استحالة ذهابه إلى القيصر طالباً للنجدة وخشيته من مجيء القوات

البيزنطية لأنه بذلك يبدل احتلال الأحباش باحتلال الروم وهذا في نظرنا ليس بالمعقول.

وتذكر الروايات بأن سيف ذهب إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر بن ماء السماء والد النعمان بن المنذر وكانت الحيرة تابعة للفرس، وطلب منه أن يقدمه إلى كسرى فارس «خسروا انو شيروان» ٥٣١ ـ ٥٧٨م وهنا تتعدد الروايات فمنها من يذكر أن كسرى فارس منح الدراهم لسيف بن ذي يزن عند مقابلته له.

وإن سيف بن ذي يزن أخذ يوزع تلك الدراهم على خدمه فاعتبر كسرى هذا العمل من قبل سيف إهانة لهيبته فاستدعى سيف وسأله عن سبب قيامه بتوزيع الدراهم التي أعطاها إياه فأجابه بأنه لم يأت طلباً للمال فبلاده غنية بالذهب والفضة وإنما سعى لطرد الأجنبي من بلاده. ووافق كسرى فارس على طلب سيف فأرسل معه ثماني سفن وحملها بثمانمائة سجين على رأسهم «وهرز» وفي الطريق غرقت سفينتان بمائتين من ركابها ثم تذكر الروايات أن وهرز تمكن من قتل «مسروق» ومن ثم طرد الأحباش من اليمن. هذا ملخص لتلك الروايات التي تشيبها الريبة والشكوك وهي روايات يدخلها الخيال والقصص الأسطوري[٢٥].

ونستطيع أن نكتشف من هذه الروايات بعض الحقائق منها: أن سيف بن ذي يزن قد استعان بالفرس، ومن تلك الحقائق أيضاً أن المعروفة الفارسية كانت محدودة، ذلك أن سيف بن ذي يزن كان على علم تام بالأحوال الداخلية المضطربة والثورات المحلية المشتعلة ضد المحتل الأجنبي وأنه كان على إدراك عميق بأن التنظيم والوحدة كان ينقص تلك الثورات فأراد أن يستعين بالفرس استعانة محدودة لتحقيق ما يلي:

١ ـ لم شمل القبائل اليمنية وتوحيدها ضد العدو الأجنبي الحبشي وهذا يتم بمعرفة القبائل اليمنية بقدوم الفرس ومعهم أحد أبناء ملوك اليمن للمساعدة في طرد الأحباش.

٢ ـ إن القبائل الأخرى والتي كانت بعيدة عن مسرح الأحداث حتى ذلك الحين ستقف إلى جانب الثورة الوطنية لطرد الحكم الأجنبي البغيض.

٣ ـ إن مجيء القوات الفارسية المحدودة سيرفع الروح المعنوية لدى أهالي اليمن ويزيد ثورتهم اشتعالاً وعلى عكس ذلك فإن الروح المعنوية عند الأحباش ستنهار عندما يسمعون بمجيء الفرس[٢٦].

وإذا كان سيف بن ذي يزن قد طلب معونة الفرس المحدودة فلأنه كان يخشى مجيء قوات فارسية كبيرة تطمع في بلاده ومن ثم تقع اليمن تحت الاحتلال الأجنبي الفارسي بدلاً من الاحتلال الأجنبي الحبشي.

ومن المؤكد أن كسرى فارس «خسروا انو شيروان» لم يقدم المعونة جزافاً لسيف بن ذي يزن إكراماً لشجاعته وإعجاباً بجرأته بل قام بذلك لصالح الامبراطورية الفارسية وذلك لضرب المصالح التجارية والنفوذ البيزنطي في اليمن، وإعادة فتح اليمن في وجه التجارة الفارسية، وأملاً في كسب مادي من وراء الفتح كجزية أو هدايا.

ويخطىء المؤرخون خطأ فاحشاً حين يذكرون أن الفرس هم الذين طردوا الأحباش فلا يعقل أن يتمكن ستمائة أو ثمانمائة أو ألف أو أكثر من طرد الأحباش من اليمن[٢٧].

وللحقيقة التاريخية فإن الثورة الوطنية التي كانت موجودة في اليمن هي التي لعبت الدور الأول والحاسم في تحرير اليمن من رقبة الحكم الحبشي. فقد وصل سيف بن ذي يزن ومن معه من الفرس إلى اليمن سنة ٥٧٥م حيث التفت من حوله قبائل اليمن وثوارها وزعماؤها وتمكنوا من تفتيت الجيش الحبشي والقضاء على معظمه وطرد أعداد منهم خارج البلاد ومن بقي منهم أصبحوا خدماً لدى زعماء القبائل اليمنية.

أصبح سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن بعد تحريرها من الأحباش إلا أنه لم يستمر في الحكم مدة طويلة حيث اغتيل من قبل خدمة الأحباش.

وكان سيف قد وافقه على دفع جزية لكسرى فارس عرفاناً بجميله، وربما كان سيف بن ذي يزن يفكر في إنهاء تلك الجزية بعد استقرار الأوضاع في اليمن، غير أن الوقت لم يسعفه لتحقيق ذلك.

خشي كسرى فارس على جزيته من الضياع بعد مقتل سيف بن ذي يزن ورأى أن الأحوال

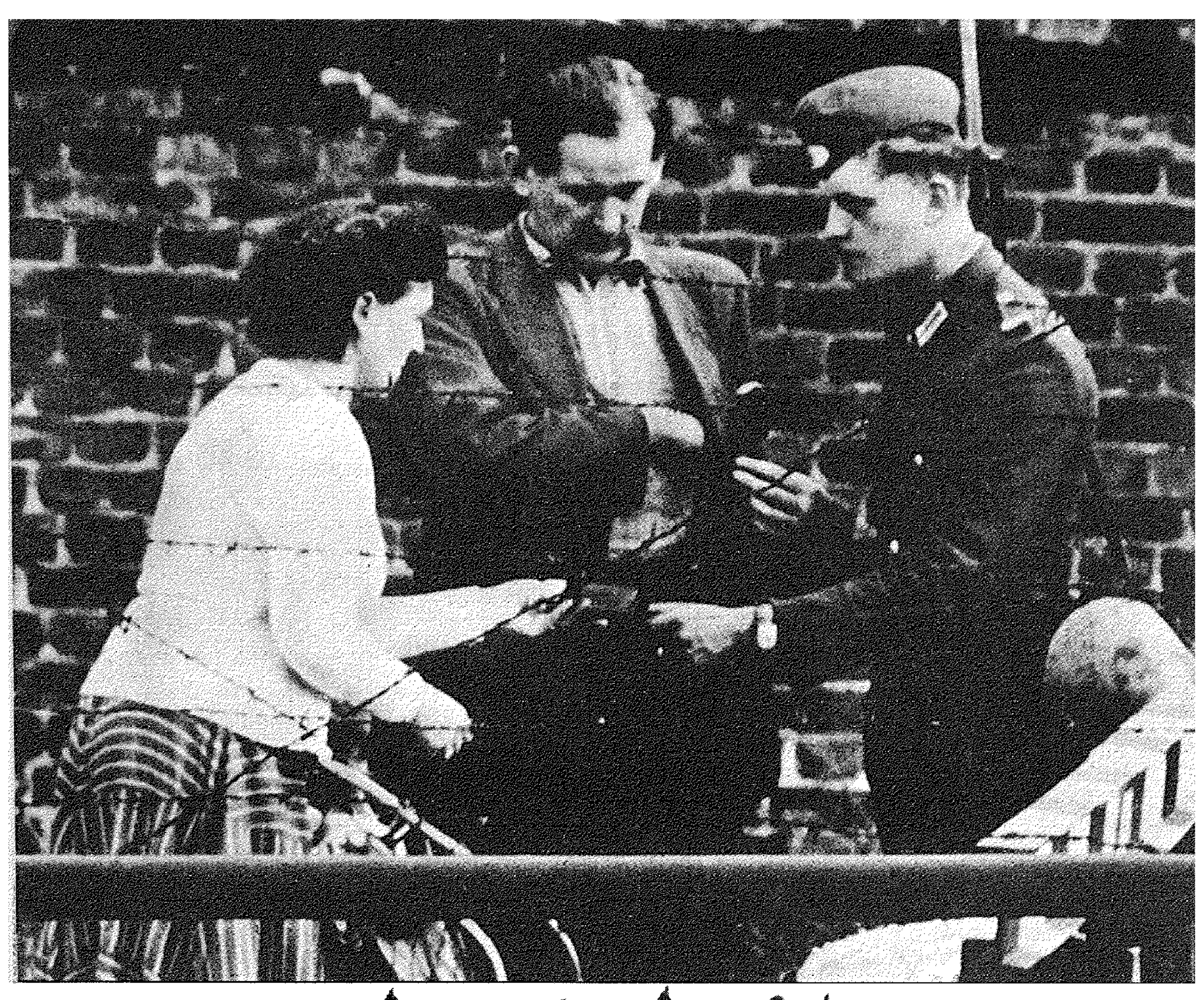
بـدأت تضـطرب في اليمن، وخشي أن يعـود الأحبـاش أو أن تقوم بيـزنطة بـالتعاون مـع الحبشة للاستيلاء على اليمن، فقام بإرسال أربعة آلاف فارس جعلوا من اليمن ولاية فارسية على رأسها «وهزر» ثم الذي تـلاه في الحكم ولده «المرزبان» ثم جاء «البنجان بن وهرز» ثم «خسر خسرو بن البنجان» وأخيراً «باذان» الذي دخل في الاسلام فأخذت الوفود من اليمن تفد على المدينة للدخول في الاسلام، ويعتبر المؤرخـون عام ٦٢٨م هاماً في تاريـخ اليمن ففيه دخـل باذان الاسلام وأصبحت اليمن جزءا من الدولة العربية الاسلامية.

وهكذا يقدم لنا التاريخ اليمني القديم صورة مشرقة لليمن الموحد في ظل دول قوية حافظت على كيان هذه الوحدة ولا أروع من ذلك حينما كانت اليمن شمالاً وجنوباً تدين لحكام «معين وسبأ وحمير» وبعد ذلك ورغم مـا أصاب اليمن من انتكاسة في زمن الحكم الحبشي، إلا أن سيف بن ذي يزن استطاع أن يعيد لليمن وحدتـه من جديد ويعيد معه دولة حمير من جديد، إلا أن الاسلام كان كفيـلاً بأن يتبنى هـذه الوحدة وتشرق في عهده دولة موحدة قوية استطاعت أن تصمد على مدى العصور حتى سقوط السيادة الاسلامية في يد الأتراك.

فهل تعيد محاولات الوحدة اليمنية الآن هذا العصر الذهبـي الخالد في حياة اليمن واليمانيين هذا أملنا نترك الاجابة عليه لمستقبل قريب إن شـاء الله. ●

الهوامش

(١) د. عدنان ترسيسي: اليمن وحضارة العرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٩ ــ ١٠.
(٢) لجنة من تنظيم الضباط الأحرار: أسرار وثائق الثورة اليمنية مطابع الرياضي، الكويت، ص ٢٥ ــ ٣٦.
(٣) ج. م باوير، ا. لوندن: تاريخ اليمن القديم، دار الهمداني للطباعة والنشر عدن ١٩٨٤، ص ٤٥ ــ ٤٨.
(٤) محمد يحيـى الحداد: تاريخ اليمن السياسي، مراجعة د. عدنان الدوري، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت، العدد ٢٤، ص ١٦٢.
(٥) ثريا منقوش: دولة معين اليمنية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت، العدد ٧، ص ١٥٤ ــ ١٥٦.
(٦) محمد يحيـى الحداد: تاريخ اليمن السياسي، مصدر سابق ذكره، ص ١٦٣.
(٧) HITTI: HISTORY OF THE ARABS, pp. 61-62.
(٨) قرآن كريم: سورة النمل الآيات (٢٢ ــ ٢٤).
(٩) DOES BRIAN SOUTHEN ARABIA, p. 67.
(١٠) محمد يحيـى الحداد: تاريخ اليمن السياسي، مصدر سابق ذكره، ص ١٦٣.
(١١) خالد محمد القاسمي: حضارة اليمن مجلة الظفر الأمارات ١٣/١٠/١٩٨٤، ص ١٢ ــ ١٥.
(١٢) PHILIBYLTHE BACKGROUNDS OF ISLAM: pp. 151-155.
(١٣) عبدالله احمد محمد الشور: هذه هي اليمن، مطبعة المدني صنعاء، ١٩٦٩، ص ١٣٦ ــ ١٤٦.
(١٤) د. رشيد الجميلي: تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدولة الاسلامية، ص ص ٧٩ ــ ٨١.
(١٥) قرآن كريم: سورة سبأ، الآيات (١٨ ــ ١٩).
(١٦) مبروك نافع: عصر ما قبل الاسلام بغداد، العراق، ص ص ٦٢ ــ ٦٣.
(١٧) خالد محمد القاسمي: مصدر سابق ذكره، ص ١٤.
(١٨) فؤاد حنين: استكمال لكتابة التاريخ العريق القديم، العراق، ص ٣٠٠.
(١٩) HITTI HISTORY OF THE ARABS, p 62.
(٢٠) DOES BRIAN SOUTHERN ARABIA, p. 70.
(٢١) د. جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بغداد، ١٩٥٦، ج ٣، ص ١٤٩.
(٢٢) محمد عبدالكريم عكاش: مقاومة الغزو الحبشي لليمن مجلة الحكمة عدن، العدد الخامس ١٥ سبتمبر ١٩٧١، ص ص ٣٩ ــ ٤٠.
(٢٣) د. جواد علي: مصدر سابق ذكره، ج ٣ ص ١٥١.
(٢٤) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب الاسكندرية، ١٩٦٨، ص ١٨١ ــ ١٨٣.
(٢٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١١٩.
(٢٦) أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، القاهرة، ١٩٥٨، ج ٢، ص ٨٠.
(٢٧) حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط. برلين، ١٣٤٠هـ، ص ٩٠.



حائط برلين

د. سامي زكي

«لا نية لأحد في إقامة جدار»، كان هذا جواب والتر أولبريخت على سؤال صحيفة، من جريدة «فرانك فورتر روندشاو»، الخامس عشر من حزيران ١٩٦١، وكان أولبريخت يومذاك أميناً عاماً للحزب الشيوعي في المانيا الديموقراطية. لم يكن أولبريخت يهزل. كان جاداً دائماً. وكان وهو في الثامنة والستين يدير بلاده في حزم ورصانة.

انتسب إلى الحزب الشيوعي منذ بداية تكوينه عام ١٩١٩. وانتخب نائباً في الرايخستاغ، عام ١٩٢٨ وبقي نائباً حتى ١٩٣٣، حين التجأ إلى فرنسا، ثم تشيكوسلوفاكيا، ثم الاتحاد السوفياتي. ومثّل حزبه في «الانترناسيونال» عام ١٩٤٥، أسهم في إدارة الشؤون السياسية في القطاع السوفياتي من ألمانيا، إلى جانب ويلهلم بييك، وأوتوغروتوهل. عام ١٩٦١ كان صاحب الكلمة المسموعة الأولى في المانيا الديموقراطية. لذلك لا بد من تصديق تصريحه.

خيّل للكثيرين آنذاك أن أزمة برلين التي بدأت عام ١٩٥٨، قد انتهت إلى الأبد. ولكن تقديرهم


ernière Heure

TES ONT VERROUILLE LE «RIDEAU DE FER»

'Allemagne de l'Est isolée

Mais Berlin-Ouest n'est pas coupée de la République fédérale allemande

t explosion à Seraing

Conséquence possible: des troubles graves en Allemagne orientale

BERLIN BLEIBT FREI

Le Roi et la Reine et les vieilles pierres de la Galice

plaisirs de la plage

Des forceurs de barrages

كان خاطئاً، ذلك أن أولبريخت أصر على المقاطعة المادية بين جزأي برلين. ففي ليل ١٢ ــ ١٣ آب ١٩٦١، كان البوليس الحربي، تساعده المليشيات تتمركز على طول الحدود التي تفصل المنطقة السوفياتية من برلين، عن المناطق الثلاث التي يحتلها الأمير كيون والانكليز والفرنسيون. وحين استيقظ سكان برلين الشرقية، دهشوا إذ وجدوا أنفسهم ممنوعين من الذهاب إلى برلين الغربية.

لم يكن ثمة جدار يفصل شطري برلين، ولكن السلطات وضعت علامات وأسلاكاً شائكة، وزرعت الحدود كلها بالمصفحات والجنود.

وعاد مصير برلين إلى واجهة الأحداث، لقد اختار الألمان الشرقيون والسوفيات اللحظة المناسبة. وكان أولبريخت حين اتخذ مبادرته يعتمد على مساندة حلف فارسوفيا ودعم خروتشيف. وكانت فكرة إنشاء جدار قد اختمرت. ولعل الفكرة قديمة، وترجع إلى يوم تقسيم برلين بين الحلفاء، يوم ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٤، حين شكلت لجنة عليا للاشراف على برلين، يتدول رئاستها الحلفاء. على أن اتفاق بوتسدام (٢ آب ١٩٤٥) أكد على حرية التنقل بين قطاعات برلين. ولكن العراقيل لم تنقطع.. خلال مرحلة إشراف اللجنة. والواقع أن السوفيات (وكانوا يسيطرون على ٣٧٢٩٥ هكتاراً) من جهة، والحلفاء الآخرين (وكانوا يسيطرون على ٤٦٦٩٢ هكتاراً) من جهة ثانية، كانوا يخلقون العراقيل، من حين إلى آخر، في وجه تنقلات الطرف الآخر.

مع ذلك، كان يجتاز الخط الفاصل بين قطاع السوفيات وقطاع الحلفاء، أكثر من نصف مليون ألماني كل يوم. ولكن السوفيات وجدوا الفرصة مؤاتية للضغط على الغرب، وذلك عام ١٩٤٨، فعرقل المارشال سوكولوفسكي قافلة للحلفاء كانت متجهة إلى برلين. وأعلنت الصحافة الروسية أنه لا يحق لغير الجيش الروسي إيصال المؤن التي يرسلها الغرب إلى برلين.

عام ١٩٤٨ وضع المارك موضع التداول في المانيا الغربية. لذلك أعلن الروس من جهتهم إصلاحات مالية في قطاعهم، ورفضوا حضور اجتماع اللجنة الرباعية في أول حزيران. وقد فتحت أبواب أزمة برلين غداة الحصار الذي أغلق فيه السوفيات كل الطرق المؤدية من القطاعات الأخرى إلى برلين. ولم يبق إلا الطرق الجوية.

كان ستالين يراهن على رغبة الحلفاء في السلام. بينما ترومان والجنرال كلاي واجها التحدي بإنشاء جسر جوي لتموين برلين.

أيار ١٩٤٩، عرض أتشيسون مشروعاً يقضي بقيام انتخابات حرة في قطاعات ألمانيا الأربعة من المدينة، فرفضه فيشنسكي. أحيا الطرفان اللجنة الرباعية، ذلك أن ستالين كان يرفض أن تسيطر على المدينة «البورجوازية». والواقع أن بلدية برلين كانت مشطورة إلى شطرين منذ تشرين الثاني ١٩٤٥.

من الاحتلال إلى السيادة

رافق نشوء الدولة الاتحادية في أيار ١٩٤٩ لخلاف في وجهات النظر. فقد قام الروس بإنشاء «مجلس الشعب الألماني» الذي أعلن قيام الجمهورية الشعبية الألمانية، واختار غروتوهل رئيساً.



□ كان هذا المكان رمز قوة ألمانيا في عهد ولهلم، ثم في المرحلة الهتلرية. أما عام ١٩٤٥ فاصبح رمز انشطار ألمانيا. إنه بوابة براندبورغ. وقد اقيم تجاهه جدار برلين.

٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٩ اختار أهل برلين الشرقية أعضاء المجلس البلدي برئاسة فريدريك إيبرت. الخامس من أيلول اختار البرلينيون الغربيون نوابهم، ومحافظهم إيرنست روتر الذي خلفه برانت عام ١٩٥٤. مع ذلك لم تنقطع الاتصالات بين شرق المدينة وغربها، نهائياً، حتى ذلك الحين.

في المؤتمر الذي عقد في شباط ١٩٥٤ طرح الغرب مسألة سلطة واحدة لألمانيا، فرفض مولوتوف الانتخابات الحرة، ورفض الغربيون الاعتراف بسلطة ألمانيا الديموقراطية التي اتخذت لها مقراً في بانكوف، إحدى ضواحي برلين.

وأصبحت بون عاصمة ألمانيا الغربية، ومنحت سلطتها حرية التصرف إلا في قطاع برلين الغربية، الذي كانت قوات دول الحلف الثلاث تقيم فيه، وتمتلك حق العبور إلى القطاع الشرقي.

خلال الخمسينات، كان مجلس الشيوخ في ألمانيا الاتحادية مخولاً تطبيق القوانين المرعية في بون، إلا المنطقة الحادية عشرة التي كان لها أصوات استشارية فحسب، في مجلس العموم.

أما ألمانيا الديموقراطية، فقد طبقت نظامها الاداري والاقتصادي على برلين. ولما لم يكن للسوفيات وحدهم الحق في الاشراف على الطرق المؤدية إلى برلين الغربية، فقد احتج الحلفاء على تصرفهم في مؤتمر عقد في موسكو، تشرين الأول ١٩٥٥.

لم يتخلل السنوات التالية أي حادث أساسي معكر. ومضى أديناور يحاول جعل برلين الغربية النموذج المعجزة. بينما أولبريخت يعيد بناء ألمانيا

الشرقية، حسب أسس وضعها بالتعاون مع الكرملين. ولم تؤثر على ألمانيا الديموقراطية عزلتها عالمياً. غير أن أكثر من مليوني شخص هربوا إلى ألمانيا الاتحادية، بين ١٩٥٠ و ١٩٦٠.

كان ثمة سباق بين شطري ألمانيا على التفوق في المجال الصناعي والتجاري والبشري. وكان قادة البلدين يعدون دائماً بمستوى أفضل من القطاع الآخر.

الخطر الذري

اندلعت أزمة برلين ثانية مع اقتراب الشتاء من عام ١٩٥٨، ففي ٢٧ تشرين الأول أعلن أولبريخت أن الغربيين، خالفوا اتفاقات بوتسدام بتسليحهم ألمانيا الاتحادية، ولذلك فإن وجودهم في برلين غير شرعي، وإن برلين يجب أن تكون عاصمة ألمانيا الديموقراطية.

١٠ تشرين الثاني أعلن خروتشيف أن الاتحاد السوفياتي سينقل كل الصلاحيات التي يمارسها إلى ألمانيا الديموقراطية. واقترح على الغربيين جعل برلين مدينة حرة، لا يتدخل في حكمها حتى أي من الألمانيتين. وأنذرهم بأنه سيعقد معاهدة صلح مع ألمانيا الديموقراطية، في مهلة أقصاها ستة أشهر إذا لم يوافقوا على اقتراحه.

تخوف الغربيون من حرب ذرية، لعلمهم بمتانة العلاقة بين ألمانيا الديموقراطية والاتحاد السوفياتي وكان يمكن تخطي الصعوبة بالاعتراف بنظام أولبريخت، ولكن كيف يمكن الابقاء على ثقة ألمانيا الغربية، عند ذلك.

أعلن المستشار أديناور، ووزيره هالشتاين، أنه سيقطع العلاقات مع أية دولة تعترف بنظام أولبريخت.

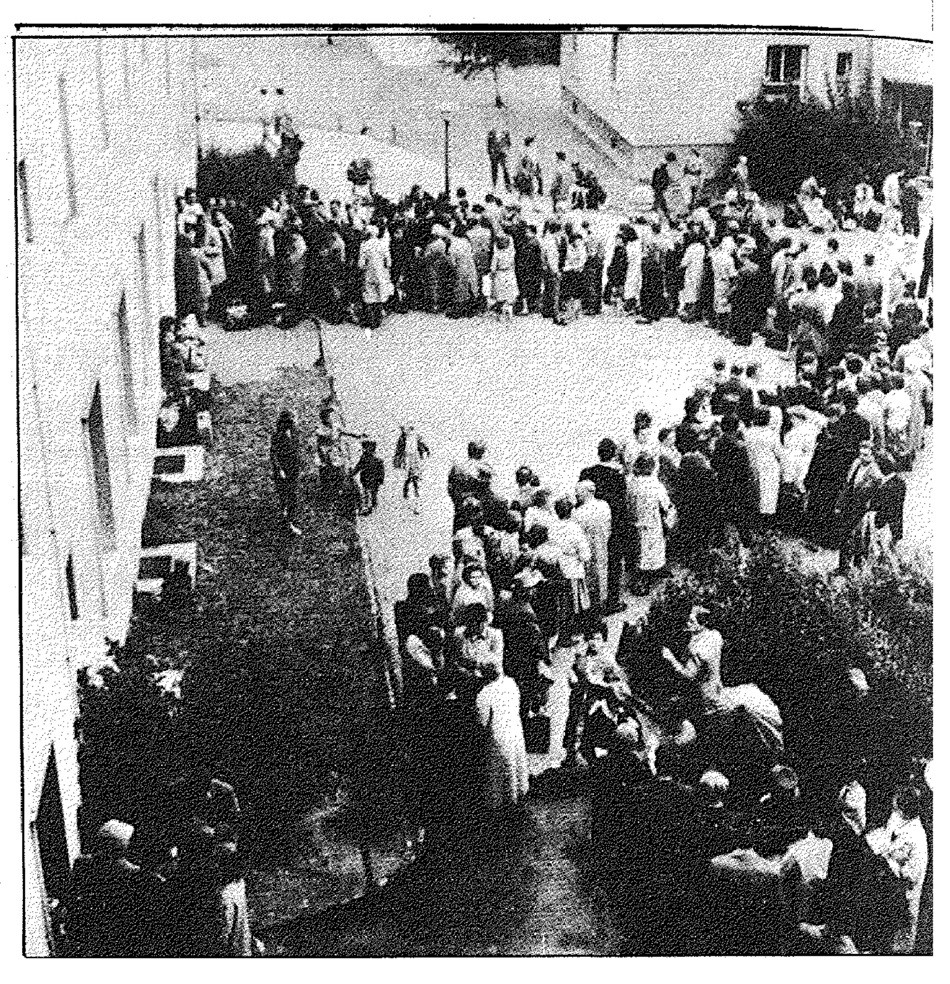
تمنى الوزير البريطاني ماكميلان التصالح. أما ديغول وأديناور، اللذان عقدا تحالفاً دائماً، فقد أصرا على الصمود ورفضا كل مساومة حول برلين الغربية. أما أيزنهاور فتردد أمام استخدام القوة. الخامس من أيلول ١٩٥٨، اغتنمت برلين الغربية، ويقطنها مليونان ونصف المليون، فرصة الانتخابات البلدية لتعلن عن إرادتها في البقاء في قلب الجمهورية الفدرالية، تحت حماية الحلفاء. أما الحزب الشيوعي فنال ١,٩ بالمائة فحسب.

◻ كندي وبرانت أمام جدار برلين.



فضل السوفيات التساهل، ووافقوا على لقاء في جنيف، حزيران ١٩٥٩. وقد دعي المانيون من الغرب والشرق، ليحضروا المؤتمر كمراقبين. ولكن المعجزة لم تحدث في المؤتمر.

دعي خروتشيف إلى زيارة الولايات المتحدة، فأنعش الجو الدبلوماسي العالمي بموافقته، وصرف النظر عن تهديده بقصد صلح منفرد مع ألمانيا الديموقراطية. وقد عاد من الولايات المتحدة مقتنعاً أن الأميركان يرضيهم أن تسوى قضية برلين. ولكنه تخلى عن هذا الوهم، حين قاطع مؤتمر باريس ١٩٦٠، في غضب شديد معلناً أن طائرة (U-2) تجسست على بلاده. وهذا ما أتاح لأولبريخت الأول في دعم السوفيات موقفه من برلين. في أواخر آب ١٩٦٠، منعت بانكوف مؤقتاً أن يعبر إلى ألمانيا الشرقية، كل رعايا ألمانيا الغربية. ولكن ذلك لم يمنع هرب الآلاف إلى برلين الغربية. وفي الوقت ذاته، شغل السوفيات بخلافاتهم مع الصين فأجلوا العناية بقضية برلين حتى ربيع ١٩٦١.



□ صف طويل من الألمان ينتظر الاذن بالعبور إلى ألمانيا الاتحادية.

٢٩ آذار ١٩٦١، في قاعة من قاعات الكرملين، أقنع أولبريخت زملاءه من بولونيا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا، بالاضافة إلى الروس، أقنعهم بضرورة اتخاذ تدابير عاجلة.

الواقع أن كارثة كبرى حدثت، ففي ١٩٦٠ ترك ١٩٩١٨٨ مواطناً ألمانيا الديموقراطية إلى الاتحادية، بينهم ١٥٢٢٩١ اجتازوا الحدود المفتوحة بين قطاعات برلين.

كانون الثاني وشباط ١٩٦١ كان مجموع من غادروا ألمانيا الديموقراطية ٣٠٢٧٣ أعمار معظمهم لا تتجاوز الخامسة والعشرين. خمسة بالمائة منهم فحسب، تجاوزوا الستين. وأسوأ من ذلك أن معظم الأخصائيين الهاربين ينتمون إلى العمال المتميزين في اختصاصاتهم سأل الزملاء أولبريخت عن التدابير التي يتوقع اتخاذها. فأجاب: ثمة حل واحد هو بناء جدار. فدعاه خروتشيف إلى التريث ريثما يرسل جيوشاً سوفياتية، خوف قيام تظاهرات في برلين.

ضرورة الجدار

مطلع حزيران، تبادل خروتشيف وكندي كلمات قاسية حول برلين. فقد أكد الروسي أن الاتحاد السوفياتي سيعقد صلحاً منفرداً مع ألمانيا الديموقراطية، قبل انتهاء ستة أشهر من ذلك التاريخ. وانتهى الاجتماع إلى التأكيد على أن السلام في ألمانيا ضرورة ملحة لتجنب الخطر الذري.

١٥ حزيران عقد أولبريخت مؤتمراً صحفياً كذب فيه عزمه على إقامة حاجز بين قطاعات برلين.

السادس عشر منه احتج خروتشيف على عقد البونرستاج في برلين الغربية. وتراجع أديناور حتى لا تتعقد الأمور. غير أن التوتر كان يتفاقم، فقد عقد كندي اجتماعاً مع كبار المسؤولين العسكريين والسياسيين للتشاور حول أفضل رد على إغلاق بوابات برلين.

وكــان التعــاضــد كبيــراً بــين دول حلف الأطلنـطي، للدفاع عن حـرية مـواطني برلين الغربية، وحول حق مواطني برلين الشرقية في الانتقال إلى الغربية.

١٩ حزيران زاد كندي الميزانية العسكرية ثلاثة مليارات ونصف مليار دولار ٢٥ منه أكد كندي للأميركيين أن أميركا ستقوم بواجباتها في برلين. ووضعت الحاميات في المدينة، في حالة التأهب. وعلى حساب الألمان، فيما يبدو، قرر كندي إلغاء طرح مـوضوع التجـول في برلين جمـاهيريـاً. ولم يشأ أديـنـاور ووزراؤه إثـارة الموضوع خاصة قبل الانتخابات.

٣ آب قام أولبريخت بزيارة الكرملين، يحمل إليه الرقم ٣٠٤١٥ عن عدد الهاربين في تموز. مما يحول معه تطبيق الاشتراكية، إذا استمر معدل الهرب. فإذا انهارت ألمانيا الديموقراطية أضر ذلك بحلف وارسو.

وافق خروتشيف هذه المرة على إقفال بوابات برلين. وأمر الماريشال كونيف الذي عين في برلين، أن يشرف بنفسه على العملية. وحين عاد أديناور في ٦ آب أخبـر أولبـريخت أعضـاء المكتـب السياسي، أن مشروعه سينفذ ليل الثاني عشر ــ الثالث عشر من آب.

تسربت بعض المعلومات إلى الغربيين حول تحركات جيوش كونييف نحو برلين. ولكن كونييف دعا القيادات العسكرية الغربية إلى حفل تنصيبه قائداً للقطاع السوفياتي. وقد سهر الجميع في بوتسدام. وكان كل ما قاله كونييف مطمئناً.

ولكن شفـرة المقصلة، سقـطت ذات سبت فشطرت المدينة برلين. ففي الثالث عشر من آب الساعة ١٢ ليلاً، نقل المسؤول الأمني إيريك هونيكر أوامر والتر أولبريخت بإغلاق الحدود. فتوقف المترو الجوي، ووضعت ثلاثة ألوية من أصـل عشرين، في حـالة تأهب. أمـا الجيش الشعبـي والميليشيا فهما اللذان نفذا الأوامر. وأعلن أولبريخت أن الألمان الغربيين أحرار في زيارة ألمانيا الديموقراطية.

قـامت تظاهـرات غاضبـة، فسـدت الطرق بالشريـط الشائـك، وأخليت الكنائس. والأبنيـة القائمة على الحدود.

على أن المواطنـين القاطنـين على الشـريط الحـدودي، وازنـوا بـين الحيـاة في المـانيـا الديموقراطية أو الاتحاديـة، فقرروا السكن في الديموقراطية لتدني أجور البيوت، والحياة في الاتحادية لسهولة الحصول على ما يطلبون.

خلال الأيام التالية استكمل الجيش الشعبـي مد الشريط الشائك على طول ٤٦ كلم وحفروا بعض الحفر، وأقاموا مراكز مراقبـة، وجعلوا عرض المنطقة العازلة أربعمائة متـر في بعض المناطق.

ارتفعت كتل الاسمنت شيئاً فشيئاً، فتكون جدار عرضه متران، وارتفاعه ثلاثة أمتار، وفي بعض الأحيان ستة أمتار.

أما رد فعل دول الغرب فخيب آمال الألمان الغربيين. وكان يوم ويلي برانت سيئاً. استدعى جنرالات الدول الغربية، الأعضاء في اللجنة التي تـدير بـرلين (الجنرالات واطسـون الأميركي، ودولاكومب البريطاني، ولاكوم الفرنسي)، وتداول معهم في مـا سيفعلون، فقالوا إنهم ينتـظرون تعليمات حكوماتهم. ورفضوا إرسال وحدات إلى المكان الذي يبنى فيه الجدار. وأزعج برانت ألا يجد أية قوات مسلحة غربية في مواجهة قوات الطرف الآخر.

اجتمع مجلس شيوخ برلين الغربية الساعة الخامسة عشرة اجتماعاً استثنائياً ليستمع إلى كلمات برانت التي دعا فيها إلى التروي، وزاد في خيبة الألمان سماعهم خطاب أديناور وهو يعلن أن «الألمان الشرقيين سيظلون إخوة لنا».

رد الفعل الأميركي

أما الرئيس كندي، الذي كان يمضي عطلته الأسبوعية في هيانيسبور، فلم يبد عليه التأثر. وكأن مصالح الولايات المتحدة وألمانيا الاتحادية لم تمس. وبعث الجنرال كلاي ليعالج المشكلة على أرضها. هذا بينما باريس وبون ولندن تنتظر رد فعل أميركا، وبرانت يقلق واشنطن برسائل الاستغاثة.

وما كاد الستار الحديدي يرخى على برلين، حتى «استراحت» العلاقات الدولية. ففي بون اجتمـع سفير الاتحـاد السوفيـاتي سميرنـون بالمستشار أديناور مدة ساعة، ونال منه وعداً بعدم بعث توتر العلاقات.





□ **جنود شرقيون يبنون الجدار ــ ثم لوحة تقول: أنتم تدخلون الآن المانيا الديموقراطية.**

١٩ آب، الساعة ١٧، هبط نائب الرئيس الأميركي جونسون، مع الجنرال المتقاعد كلاي، على أرض مطار برلين. لقد جاءا ليخففا وقع الكارثة على ألمانيا الاتحادية.

قضى جونسون يومين في برلين. واقترب مرتين من الجدار، وتبادل مع برانت «الكلمات الطيبة». وحين أعلن أن وحدات أميركية ستتحرك نحو برلين الغربية، «اطمأن» كندي، ولكن جو الخزي الألماني الغربي كان كبيراً. حتى حين قدم أديناور إلى برلين، ٢٢ آب استقبله برانت استقبالاً فاتراً. لقد أدرك الألمان أن السلام العالمي يقضي بطي المسألة. ودعا كندي الجنرال كلاي العودة إلى برلين ليكون قريباً من «الأعزاء الألمان»، فبقي هناك حتى أيار ١٩٦٢.

حدثت بعض الأحداث الاستعراضية، كأنما لانقاذ سيكولوجية الألمان. بعض الجيبات الأميركية عبرت إلى برلين الشرقية، ثم عادت بعد قليل. بعض المصفحات تمركزت في «شك بونيت شارلي» التي كانت واشنطن تنوي جعلها نقطة عبور حر للحلفاء. لم يقم جنود ألمانيا الديموقراطية بتفتيش الأميركان، ولكن مدرعات سوفياتية اتخذت لها مراكز على بعد مائتي متر من المصفحات الأميركية.

ولكن الأميركيين طمأنوا الروس فسحب هؤلاء مدرعاتهم بعد ٤٨ ساعة. مع ذلك أزعج تصرف كلاي «الساخن» قادة حلف الأطلسي، ما عدا دوغول الذي أيد سياسة الحزم. وأبدى أسفه لأن جنود الحلفاء لم يتدخلوا يوم ١٣ آب. فأرسلت موسكو احتجاجاً إلى باريس على تصريح دوغول.

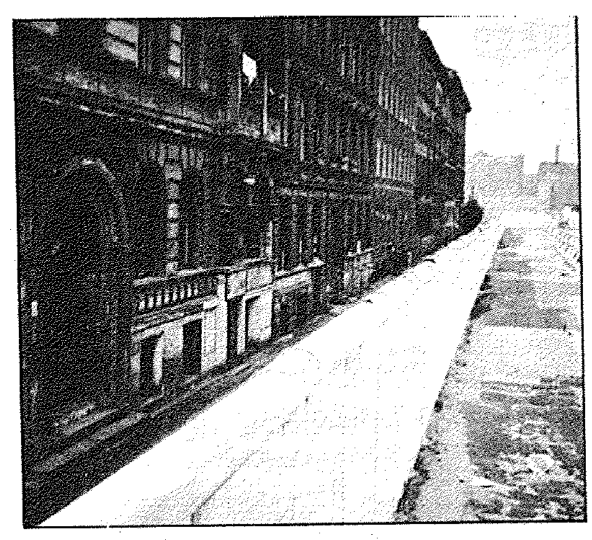
عاد كلاي إلى بلاده في أيار ١٩٦٢. واكتفى الحلفاء بثلاثة عشر مركز عبور.

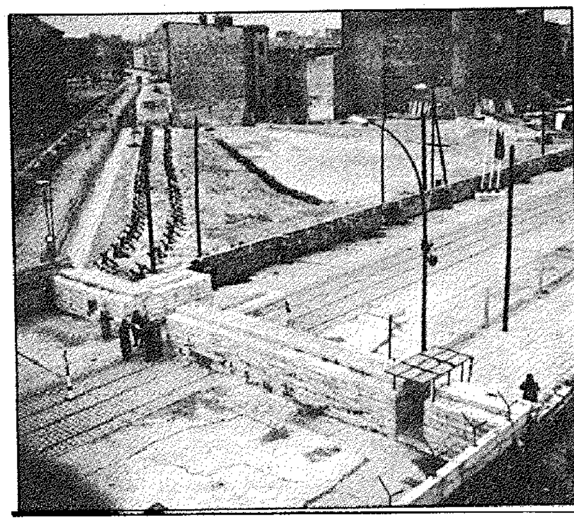
نهاية الأزمة

وقعت ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفياتي معاهدة صداقة في ٢ حزيران ١٩٦٤. وأعلنا عن رغبتهما في علاقات طبيعية، خاصة في برلين الغربية. وبعد ثلاثة أشهر سمحت برلين الغربية لمواطنيها أن يزوروا — وعلى نطاق واسع — أهلهم في القطاع الشرقي. بل سمحت بإعادة توحيد العائلات التي انشطرت عند بناء الجدار.

١٩٧١ قامت مفاوضات أعيد فيها النظر في موضع برلين القانوني، وتطبيع العلاقات بين القطاعين. وقد وقع اتفاق (٣ أيلول ١٩٧١) سمح فيه السوفيات بعدم اعتراض القوافل التي تعبر أرض ألمانيا الديموقراطية، ذهاباً وإياباً بين القطاعات التي يسيطر عليها الحلفاء. في الوقت الذي أعلن فيه الحلفاء «أن برلين الغربية ليست عنصراً مكوناً للجمهورية الألمانية». وبهذا المعنى لا يحق لمجلسي البوندستاج والبوندسرات عقد جلساتهما فيها.

في أيلول وقّعت بون وبانكوف اتفاقاً حول العبور بين المنطقتين. ٢١ أيلول ١٩٧٢ وقعت الدولتان اتفاقاً يقول: «إن سلطة كل حكومة تقوم على أرضها فحسب». وهكذا تنازلت حكومة بون عن ادعائها تمثيل كل ألمانيا. وتبودل السفراء بين البلدين، وقبلا في الأمم المتحدة في أيلول ١٩٧٣.





□ صورتين عن الحواجز والجدار.



نعـــوذ بالله

● كان الشيخ نصرالدين المعروف عند العامة بجحا، رجلاً فاضلاً فيه دعابة وفيه عقل، وكان يحلو له دائماً أن يخلط بين المزاح والجد، ويصارح محدثه برأيه فيه في فكاهة مستملحة. وذات يوم التقى بالطاغية تيمورلنك فقال له: يا شيخ نصرالدين: إني شديد الاعجاب بأسماء الخلفاء السابقين التي تختم دائماً باسم الله كالواثق‌بالله، والمظفربالله، وأريد أن تختار لي اسماً من هذا النوع. فالتفت إليه الشيخ جحا وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة وقال له: أختار لك (نعوذبالله!) فضحك الطاغية ولم يستطع الكلام.

■ **أول مؤتمر في الاعجاز الطبي في القرآن الكريم:**

اختتمت في شهر محرم ١٤٠٦هـ بالقاهرة جلسات أول مؤتمر علمي في العالم لدراسة الاعجاز الطبي في القرآن الكريم وشارك فيه ٥٠٠ عالم في الطب والدين يمثلون ٢٨ دولة عربية وإسلامية وبعض دول العالم الأخرى. كما شاركت في أعمال المؤتمر بعض الهيئات العلمية الاسلامية مثل رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة وجامعة الملك عبدالعزيز بجدة ومنظمة الصحة الاسلامية بالكويت والوقف الطبي بلبنان.

وناقش المؤتمر أكثر من مئتي بحث تناولت علوم الأجنة والوراثة والخلية والأمراض الجلدية والتناسلية والعقم وأمراض النساء وطب الأطفال والرضاعة الطبيعية إلى جانب بعض الموضوعات الطلابية المعاصرة مثل الطب الشرعي وعمليات تغيير خلقة الانسان والأبحاث التجريبية للأدوية على البشر ونقل الأعضاء والدم والتلقيح الصناعي بالاضافة إلى المشكلات التي تواجه الطبيب المسلم عند استخدام الأساليب الطبية الحديثة.

كما ناقش المؤتمر بعض الأبحاث في مجال الصحة العامة والطب الوقائي منها بحث عن الحكمة في تحريم بعض أنواع الأطعمة مثل لحم الخنزير وأبحاث أخرى تناولت الأساليب العلاجية المختلفة كما جاء ذكرها في القرآن الكريم مثل استخدام عسل النحل في علاج الكثير من الامراض وكذلك الزنجبيل والكافور والسواك وغيرها من الأساليب التي اكتشف العلماء مؤخراً فوائدها العلمية.

■ **منظمة المؤتمر الاسلامي تصدر مخطوطات الطب الاسلامي**

أصدر مركز الأبحاث للثقافة والتاريخ والعلوم الاسلامية التابع لمنظمة المؤتمر الاسلامي بتركية فهرساً جديداً لمخطوطات الطب الاسلامي.

وهو حصر للكتب الطب الاسلامي الموجودة في /١٣٩/ مكتبة في تركية ويحوي معلومات /٤٥٠/ مؤلفاً من ١٠٠ مترجم وشارح. ويبلغ عدد الكتب حوالي ألف كتاب فيما يقرب من /٥٠٠٠/ نسخة وقد أدرجت مؤلفات كل مؤلف تحت اسمه مع تقديم وصف للنسخ الموجودة منه في المكتبات كما أدرجت الاعمال المجهولة المؤلفة والناقصة في هذه الفهرسة أيضاً. والجزء الرئيسي للفهرس هو بالعربية.

■ **معهد للبحوث العلمية والتراث الاسلامي في جامعة أم القرى:**

صدرت الموافقة على إنشاء معهد للبحوث العلمية والتراث الاسلامي في جامعة أم القرى. وسيضم المعهد مركزاً للبحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي ومركز للبحوث التربوية والنفسية ومركز أبحاث العلوم التطبيقية وسيكون له مبنى خاص وتتبعه مكتبة متكاملة فيها قسم للمخطوطات وقسم للمصورات وآخر للرسائل الجامعية. وستكون له ميزانية مستقلة.

■ **صدور «فهرس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا»:**

صدر عن معهد المخطوطات العربية مؤخراً «فهرس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا» (إحدى مكتبات مدينة «سلا» المغربية)، وهو أول فهرس من السلسلة التي ينوي المعهد إصدارها للمكتبات التي لم تفهرس مخطوطاتها. تضمن الفهرس الذي وضعه الدكتور محمد صبحي وصفاً لست وثلاثين وثلاثمائة وألف مخطوطة، ووقع في ٧٢٢ صفحة من القطع المتوسط، وذيل لكشافات الكتب والمؤلفين والناسخين.

■ **اتصالات واسعة للتحضير للندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم:**

يقوم معهد التراث العلمي العربي التابع لجامعة حلب بإجراء اتصالات واسعة مع الجهات والمؤسسات المهتمة، وذلك لتحديد مكان وموضوع وتاريخ انعقاد الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب التي من المقرر عقدها في ابريل (نيسان) ١٩٨٧م. وسوف تناقش الندوة الموضوعات التالية:

ـ تاريخ العلوم الطبية والصيدلانية.
ـ تاريخ العلوم الأساسية (الكيمياء، الفيزياء، الرياضيات).
ـ تاريخ العلوم الزراعية وعلم الحيوان.
ـ تاريخ العلوم الهندسية والجيولوجية.
ـ تاريخ التكنولوجيا.
ـ انتشار العلوم العربية وانتقالها من الشرق إلى الغرب.

وسوف تعقد حلقة بحث خاصة حول الموضوع.

تقرير عن المكتبة الوطنية الجزائرية

يعد قسم المخطوطات في المكتبة الوطنية الجزائرية من الأقسام الهامة في المكتبة، فهو يحتوي على نحو تسعة آلاف مخطوطة، معظمها باللغة العربية، وتتوزع على علوم الدين والسياسة والادارة والفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والتاريخ والطب واللغة والأدب.

وقد تأسست المكتبة ـ اكبر المكتبات في الجزائر ـ في عام ١٨٣٥، وهي بذلك أقدم مكتبة وطنية في العالم العربي، وكان مقرها في قصر الداي مصطفى باشا، ثم انتقلت في عام ١٩٥٨ إلى مبنى خاص مزود بالمعدات والأجهزة اللازمة.

ويبلغ إجمالي ما تحتويه المكتبة ٩٠٠ ألف مجلد، منها ١٧٠ ألفاً بالعربية، والباقي باللغات الأجنبية، وخاصة الفرنسية. وتنقسم المكتبة إلى عدة أقسام هي: القسم الدولي (٧٠٠ ألف مجلد)، العربي (١٧٠ ألف مجلد)، المغربي وهو من أهم الأقسام إذ يحتوي على المطبوعات التي تتناول المغرب العربي الكبير من كل الجوانب، الدوريات، ويضم مجموعة كبيرة من الدوريات العربية والأجنبية. وهناك أقسام للتبادل، والايداع القانوني، والمنشورات والتجليد والتصوير، فضلاً عن قسم موسيقى فيه نحو ٤ آلاف اسطوانة وشريط من الموسيقى الجزائرية والمغربية والعربية والعالمية، ونحو ٢٢ ألف تأليف موسيقي.

أما قسم المخطوطات فيحتوي على نحو تسعة آلاف مخطوطة في ٣٨٠٠ مجلد، معظمها باللغة العربية، وقليل منها باللغتين الفارسية والتركية. وتعود تواريخها إلى عهود مختلفة.

ومن أقدم المخطوطات جزء من القرآن الكريم مكتوب بخط مغربي ومنسوخ على رق الغزال في القرن الخامس الهجري.

وتتناول هذه المخطوطات موضوعات متعددة: القرآن والحديث، الفقه وأصوله، اللاهوت، السياسة والادارة، الفلسفة والمنطق، الحساب والهندسة والفلك والتقاويم، التاريخ وخاصة تاريخ الجزائر والمغرب الكبير وإفريقية، الطب، النحو والأدب والشعر.

وقد تم تجميع رصيد المكتبة من المخطوطات من خلال حث الناس على التخلي عما يملكونه منها عن طريق البيع أو الاهداء للمكتبة حيث تحظى بالصيانة، وتكون في متناول أيدي الباحثين. وبهذه الطريقة ضمت إلى المكتبة العديد من مكتبات رجال الدين والقضاء، كالشيخ الحسن بن الحبال مفتي بجاية المتوفى ١٩٤٤، والشيخ علي بن الحاج موسى، القيم السابق على ضريح عبدالرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، والشيخ ابن درويش قاضي معسكر، وابن حمودة. وترجع أهمية مكتبته إلى انها تضم نسبة كبيرة من الكتب المتعلقة بالمنطقة المعروفة عند قدماء المغاربة ببلاد السودان (مالي والنيجر). ويبلغ عدد مخطوطاتها ٢١٩ مخطوطة.

كما اشترت المكتبة مجموعة من المخطوطات والمطبوعات من مكتبة الأمير عبدالقادر في دمشق، ومجموعة أخرى (وعددها ٤٠) كانت تملكها أسرة ابن رحال، من تاجر كتب في باريس.

وقد اشترت المكتبة مؤخراً ٣٧ مخطوطة جديدة و ٦ كتب مطبوعة طبعاً حجرياً في القرن التاسع عشر، من أوروبا، وكانت هذه المخطوطات والمطبوعات ملكاً لأسرة جزائرية تسكن في مدينة ندرومة قرب تلمسان.

ومن أهم مخطوطات المكتبة:

ـ شرح ابن رشد على ارجوزة ابن سينا في الطب. مكتوبة بخط مغربي متأخر متوسط الجودة.

— المسالك والممالك، لأبي عبيد البكري، بخط مغربي من خطوط القرن العاشر الهجري.

— أزهار الأفكار في خواص جواهر الأحجار، لأبي العباس أحمد بن يوسف بن محمد التيفاشي، بخط مشرقي.

— الفلاحة النبطية، ترجمه من الكلدانية أبو بكر بن أحمد بن علي القصداني، بخط مشرقي من خطوط القرن السادس الهجري تقديراً.

— السيرة الذاتية للأمير عبدالقادر بن محيي الدين الجزائري، كتب بعضها بخط الأمير نفسه، وبعضها بخطوط بعض رفقائه في سجن «امبواز». وهي نسخة فريدة، وتتضمن شهادة الأمير بشأن الأحداث التي كانت خاتمة كفاحه المسلح. وقد صورت وزارة الثقافة الجزائرية هذا الكتاب بمناسبة مرور مائة عام على وفاة الأمير.

— «المواقف في التصوف والوعظ والارشاد»، للأمير عبدالقادر بن محيي الدين الجزائري. وقد طبع في دمشق عام ١٩٦٦، وصورته وزارة الثقافة الجزائرية بمناسبة مرور مائة عام على وفاة الأمير.

ومن المخطوطات التي نشرت من رصيد المكتبة:

— البستان في ذكر الأولياء بتلمسان، لمحمد بن مريم، بتحقيق محمد بن أبي شنب. الجزائر: المطبعة الثعالبية، ١٩٠٨. ٣٨٠ صفحة.

— بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد، لأبي زكريا يحيى بن خلدون، بتحقيق عبدالحميد حاجيات. الجزائر: المكتبة الوطنية ١٩٨٠. ٣٢٥ صفحة.

— عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، لأحمد بن محمد الغبريني، بتحقيق رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥. ٣٦٢ صفحة.

— نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، لمحمد بن عبدالله التنسي: (الباب الخاص ببيان شرف بني زيان وتتبع دولهم إلى دولة المتوكل فخر الزمان)، بتحقيق محمود بو عياد.

● ندوة الحديث والسير في حيدر أباد تدعو للاهتمام بالمكتبات الهندية

ناشد المشاركون في الندوة العالمية حول الحديث الشريف والسيرة النبوية التي انعقدت في حيدر آباد بالهند خلال الفترة من ٣١ مارس إلى ١ ابريل ١٩٨٥، ناشدوا الحكومات الاسلامية العربية المساهمة في الحفاظ على التراث العربي الاسلامي المخطوط في المكتبات المنتشرة في مختلف انحاء الهند، ومنها المكتبة السعيدية، الآصفية، الجامعة العثمانية، دائرة المعارف الاسلامية، مكتبة سالارجنك.

وأكدوا أن هذه المكتبات وغيرها عامرة بمخطوطات في مختلف العلوم والفنون الاسلامية، وخاصة علوم الحديث الشريف والسيرة النبوية.

وطالبوا في ختام ندوتهم باتخاذ جميع الاجراءات اللازمة لوقاية هذه المكتبات، وتصوير مخطوطاتها على أفلام، وتهيئة الوسائل الضرورية لطبعها ونشرها.

● تقرير عن المخطوطات العربية في يوغسلافيا

صدر عن معهد المخطوطات العربية / الكويت تقرير عن المخطوطات العربية في يوغسلافيا قام بإعداده الأستاذ عصام الشنطي الذي زار مدينتي سرايبفو، وموستار، وسجل ملاحظات عن مكتبة غازي خسرو بك الاسلامية ومعهد الاستشراق والمكتبة الشعبية والجامعية العامة ودار المحفوظات الحكومية في سرايبفو وموستار.

وقد أنشئت مكتبة غازي في القرن السادس عشر الميلادي، ومن الملاحظات على مخطوطاتها، أن نسبة عالية منها تحتاج إلى صيانة وترميم أو تجليد. ويبلغ عددها حالياً حوالي ١٤٥١٠ مخطوطات، تم جمعها عن طريق الوقف (٥٨١٥ مخطوطة) والنقل من مكتبات المساجد والمصليات والزوايا وبعض المكتبات الخاصة الموقوفة أو شبه الموقوفة (٢٩٠٢)، والشراء (٢٧٤٢) والاهداء (٣٠٥١). وجميع المخطوطات مكتوبة بالحرف العربي، لكنها مقسمة على لغات متعددة، كالعربية، والتركية، والفارسية، واليوغسلافية. واقل هذه المخطوطات عدداً مخطوطات اللغة اليوغسلافية بالحرف العربي. وأكثرها المخطوطات العربية (٧٠,٢١ ٪).

وتتوزع المخطوطات من حيث الموضوع لتشمل الموسوعات، المصاحف، علوم القرآن، علم الحديث، العقائد، الأدعية والأذكار، الفقه، الأخلاق والمواعظ، التصوف، الحكمة والفلسفة، علوم اللغة والأدب، التاريخ والجغرافيا، الطب والبيطرة، العلوم الطبيعية والرياضيات.. وغيرها.

وتعد المخطوطات الفقهية هي الأكثر، وكلها في الفقه الحنفي. وقد أصدرت المكتبة فهرسين مطبوعين، صدر الجزء الأول منهما في عام ١٩٦٣، والثاني في عام ١٩٧٩، وتم فيهما فهرسة ١٩٥٧ مجلداً. ويعمل قسم الفهرسة الآن في مخطوطات الأخلاق والمواعظ، وكذلك التصوف، لاصدراهما في جزأين جديدين.

ومن نفائس مخطوطات المكتبة واقدمها نسخة من «إحياء علوم الدين» (ربع المنجيات) لأبي حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ، ومخطوطة «فردوس الأخبار بمأثور الخطاب» لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي المتوفى ٥٠٩هـ، والنسخة كاملة في عشرة آلاف حديث، كتبت في همذان سنة ٥٤٦هـ، ومخطوطة «تاج التراجم في تفسير القرآن للأعاجم»، لطاهر بن محمد الاسفرايني المتوفى ٤٧١هـ، والنسخة كتبت سنة ٥٧٩هـ.

ومن نوادر مخطوطاتها: «شرح الكليات» لابراهيم بن علي السلمي المتوفى ٦١٨، كتبت سنة ٦٠٦هـ. «زيادات حقائق التفسير» لمحمد بن الحسين الأزدي المتوفى ٤١٢هـ.

وفي المكتبة مخطوطات لمؤلفين محليين، منها: «أصول الحكم في نظام العالم» لحسن كافي الأقحصاري البوسنوي المتوفى ١٠٢٥هـ، «مجمع الجواهر» «ورسالة في المسائل الخمسة» لحسن بن نصوح الدُّمنوي البوسنوي.

وفي المكتبة ايضاً ستة آلاف وثيقة تاريخية مهمة، تكشف عن تاريخ المنطقة وانتشار الاسلام فيها، ونشاطها، والحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهلها. أما معهد الاستشراق في سرايبفو فيقدر عدد مخطوطاته بسبعة آلاف مخطوطة في ٤٨٥٠ مجلداً، ٥٠ ٪ منها باللغة العربية. وهي غير مفهرسة.

وفي المكتبة الشعبية والجامعية العامة ٦٤٨ مخطوطة إسلامية في ٥٠٠ مجلد، معظمها باللغة العربية. ومن أقدمها: «نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن» لأبي بكر محمد بن عُزَيْز السجستاني المتوفى ٣٣٠هـ وهي مكتوبة سنة ٨٤٥هـ، «مجمع البحرين وملتقى النيرين» لأحمد بن علي بن تغلب بن الساعاتي المتوفى ٦٩٤هـ وهي مكتوبة سنة ٨٩١هـ.

ومن مخطوطات المؤلفين المحليين: نسخة من مخطوطة «أصول الحكم في نظام العالم» لحسن كافي الأقحصاري المتوفى ١٠٢٥هـ، وله ايضاً: «أزهار الروضات في شرح روضات الجنات في أصول الاعتقادات».

وتضم دار المحفوظات الحكومية بمدينة موستار ٧٥٦ مخطوطة، معظمها باللغة العربية. وقد صدر لها فهرس عام ١٩٧٧.

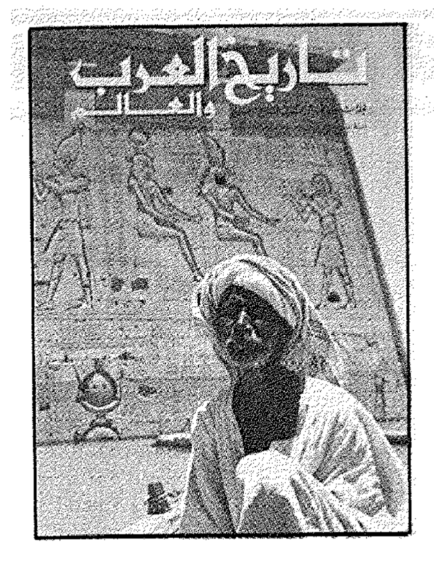
● كتاب عن علي بن رضوان رئيس أطباء مصر

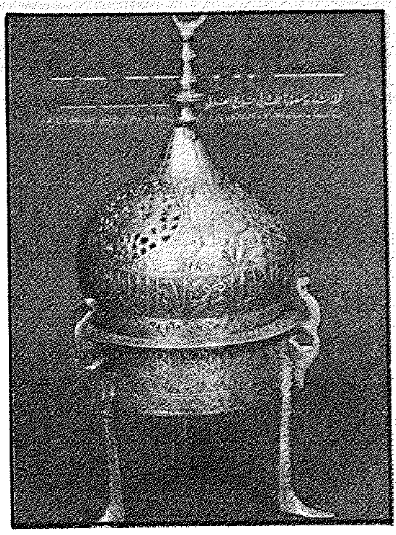
صدر عن إدارة الثقافة في المنظمة كتاب «الطبيب العربي علي بن رضوان رئيس أطباء مصر» وهو من تأليف الدكتور سلمان قطاية. وقد تضمنت الدراسة مقتطفات من مؤلفات ابن رضوان: الباب الأول من مخطوطة «في التطرق بالطب إلى السعادة» وهي في التنبيه على ما في كلام المختار بن الحسن البغدادي من الأغاليط. الفصل التاسع من «دفع مضار الأبدان عن أرض مصر»..

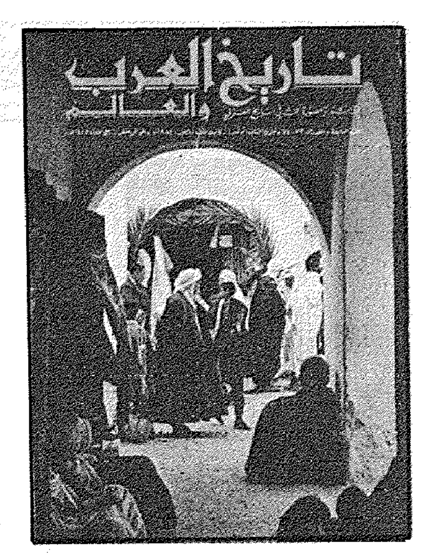
كما عرضت الدراسة إلى عصر ابن رضوان وسيرته ومؤلفاته والتعليم الطبي في زمانه وكلامه عن الأمراض الوافدة، ونقده لأبي بكر الرازي، وابن الجزار، وخلافه مع ابن بطلان.

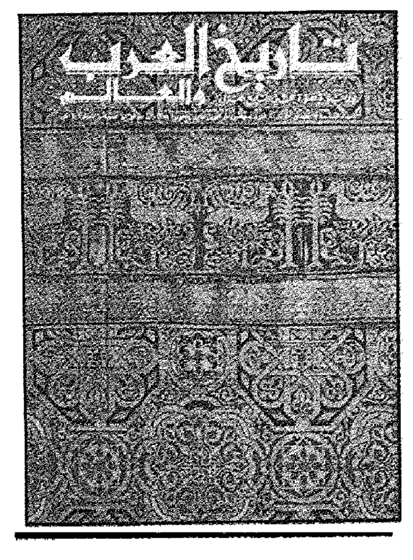
● «دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي»

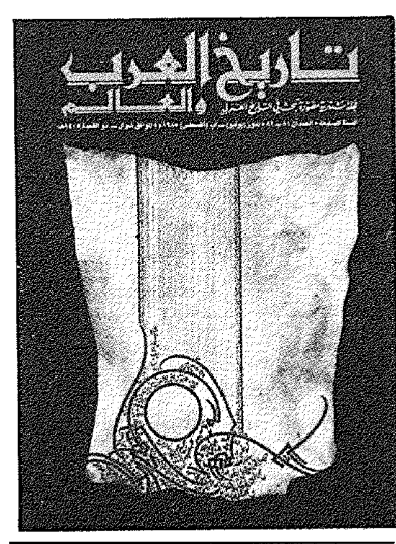
كما صدر عن إدارة الثقافة «دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي» (القسم الأول) بأقلام عدد من أهل الخبرة والدراية والاختصاص. وقد تضمن الكتاب سبع دراسات عن واقع الترجمة في سبعة أقطار عربية هي: الأردن، تونس، الجزائر، السودان، سورية، العراق، ليبيا. وقع الكتاب في ١٧٤ صفحة من القطع المتوسط.







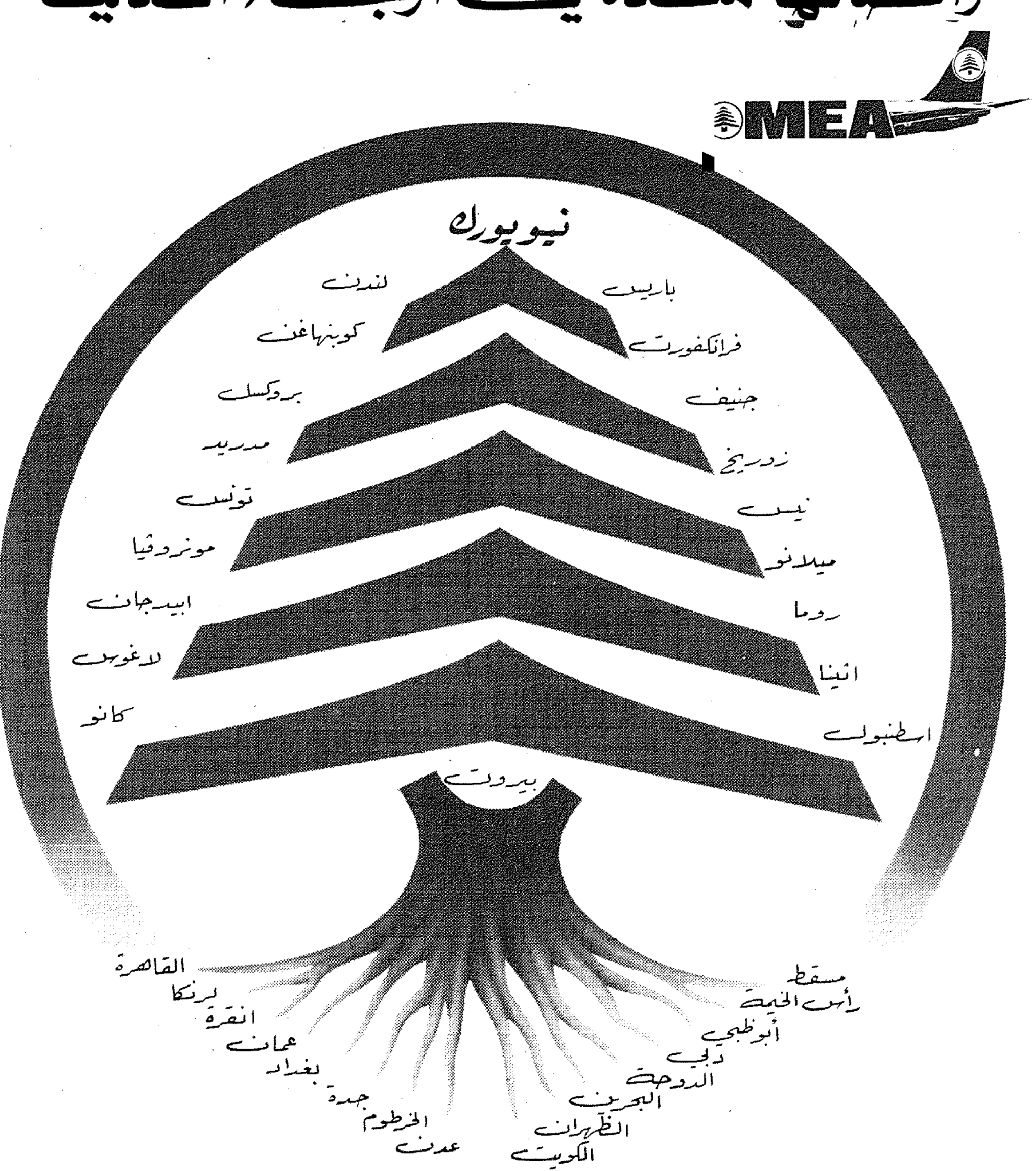




الفهرس العام للسنة السابعة



موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوّية اللبنانيّة
جُذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا





□ أبيات من الشعر بالخط «التعليق»، من فارس (القرن الرابع عشر).